
رواية
BECAUSE I LOVE YOU
لأنني أحبك
معاذ الإدريسي

الترقيم الدولي

978-9920-622-55-4

تحقيق ومراجعة :

الصديق الخل والصديق

إهداء :

إلى كل من تمكن الحب من قلبه فاحتار بين الثبات والرجوع...

إلى كل من غلبتهم العاطفة في ميادين الحب، أهديكم روايتي هذه...

إلى أمي وأبي وإخوتي، وعزيزتي التي أفقدتني صوابي، إلى الأخ

والصديق جمال بن عبد الله، الذي ساندني بقوة، إلى جميع الأصدقاء الذين لن

تكفيهم أوراقي كي أخط أسماءهم فيها، أحبكم وأهديكم ما خطه قلبي..

تعالي لننسج حلما جديدا

نسميه للناس حلم الرحيل

فاروق جويدة 

التاسعة قبل منتصف الليل.

أردت أن أخبرك أنني لم أنم بعد وأني ظللت أفكر في نسيم عطرك وشظايا روحك الجميلة، ونظرتك القاتلة التي ألهمتني حبك وانتشلتني من واقعي المرير .

أردت أن أعبر عما في نفسي فوجدت الكتابة خير سبيل لأصف للعالم روحك الطاهرة ووجهك القمري، أردت أن أصف للعالم أنني عشقت بشرا ليس كباقي البشر، بل هو ملاك في هيأة إنسان، لكن الكلمات لا تسعفني فأظل في سبات عميق ماسكا قلمي بيدي، وفوق مكتبي كوب قهوة بارد، وعلى يساري طبق من الحلوى أعدته لي والدتي، كنت قد أخبرتها أنني لا أريده، فالقهوة وحدها كافية كي تعيد إلي الحياة .

لكنها أصرت أن تحضره لي، لخوفها وحنانها يجعلانها تفكر بي دائمًا ، ولم لا وهي أغلى ما في قلبي.

لقد رأيتك اليوم ترتدين ثوبا جميلا، وكنت أحدق فيك بين الفينة والأخرى

ناسيا أحاديث أصدقائي وثرثرتهم، وكأنني عندما أراك أخدر بإبر نظرتك القاتلة، وكم كنت أحاول جاهدا أن أفهم العلاقة التي تربطك بالجاذبية ، لكنني اكتشفت في آخر المطاف أنك الجاذبية نفسها.

وخيالك يا سيدتي يأتيني كل ليلة في المنام، وعندما أستيقظ، وعندما أصلي وفي كل ركن من الأركان، أعتقد أنني قد شغفت بك أكثر من اللازم.

لكن ما عساه يفعل العاشق المسكين غير أن يقف فوق تاج روحك يشدو شدى الألحان وينادي بأعلى صوته :

أيها العشاق، ألا فاشهدوا أنها أميرتي ولن يأخذها مني أحد، ألا فاعلموا

أني أحببتها حبا يفوق حبكم وعشقا يفوق عشقكم، وهياما لن تبلغوا مداه مهما حاولتم.

لقد اشتقت إلى تلك الأيام التي كنت أحدثك فيها حديثا يعجز عن وصفه الشعراء ، وعن مداراته الأدباء، اشتقت إلى تلك الكلمة التي كنت تقولينها:

"كيف حالك يا جنوني العاقل" وكنا نبتسم كلما تلفظت بها شفاهك، لكنني لا أخفيك أنك كنت تسحرين كياني وتثيرين براكينا داخل قلبي كلما نطق بها فاك.

أسير بين روحك كطير مهيض الجناح خانته جناحاه لايستطيع أن يرفرف بهما عاليا نحو السماء، لقد احتويتني من الداخل والخارج، أمسكتني من كلتا يداي وقلت لي:

–إلى أين ستهرب مني...؟

كنت أحس بمشاعري تتجمد تجاهك، فأجبتك ببرود:

–أنا أنت، وأنت أنا ، كيف يعقل أن أهرب من ضلعي...!!

كنت كأسد في الغاب لا يسيطر عليه شيء إلا نظرة لبوءته إليه ، كنت كسجين هارب من الظالمين إلى عدالتك.

علمت أنني إن سجنت في قلبك فلن أهرب منه ثانية، إلا أنك قررت الإفراج عني بدية الحب.

ما أروع ما تمتلكينه من صفات الأميرات، وكم تمنيت أن أكون أميرا في مملكتك، لكنني كنت مجرد سائس للأحصنة، فأنى للسائس أن يحلم حلم الأمير.

لكن؛ كنت أعلم أن القلوب على أشكالها تقع، ولابد للقلوب أن تلتقي يوما، أعرف أنك الآن أميرة القصر، وأعلم أن كل من في القصر يهواك، وما كنت لأغار، لأني كنت أعلم أنك تعشقينني وحدي وكان هذا كافيا لأن أحيا من جديد.

يا ليتني أسير في موكبك يا أميرتي وأضع مظلة فوق رأسك تحميك من وهج الشمس، كنت أنظر إليك وأنت تلوحين بيديك للعامة ، وقد كنت ألوح بيدي كي تريني لكنك صرفت نظرك عني.

وكم كنت محتاجا حينها لأن أضم ضمة تنسيني ترحة الحياة، لم يكن جمال يومي إلا بإشراقة وجهك في الصباح، ولم يكن عبوسه إلا بمغيبك، وكأنك شمس تضيء نهاري.

وما كان يسعدني أكثر، هو أنني كلما نظرت للبدر، تذكرت سطوع وجهك المنير، وسحابة طيفك العابر، فأعلم حينها أنك الشمس والقمر ، وكيف لي أن أعيش من دون شمس ولا قمرٍ.

ينهار قلبي كلما ذكر اسمك أمامي، وتتلاشى أوراق الخريف داخل أوردتي ، ويقشعر بدني وأصاب برجفة داخلي تكاد تقتلني وتمزقني ، لا أعلم لماذا يحدث لي كل هذا، أهو الحب...؟

لكنني أعلم أني أحبك ، وأعلم كذلك أنك تعشقينني ، لكن ما سبب هذه الفجوة بيننا، أهو اشتياق قلبي لقلبك، أم اشتياق عيني لحسنك وجمالك أم هو البعد الذي حال بيننا...!!!

ماهرة أنت ياسيدتي في زعزعتي وفي قتلي وتمزيقي، وكأنك كنت مدربة من قبل على فعل هذا، لكنني أعلم أن جمالك الطبيعي يشع من تلقاء نفسه، فيأسر القلوب، ويقتل كل من في الوجود، والحمد لله أني كنت قتيلك.

مابال المحاكم قد تناست عقوبتك، أخشى أن يصل سحرك إليهم، فلا تعاقبين أبدا.

وحتى وإن أرادوا محاكمتك، ما كنت لأسمح لهم بذلك، بل كنت لأدافع عن قضيتي الوحيدة، لأن قتلك لي بكل بساطة كان حياه.

وقلبي كالبيانو تجيدين العزف عليه أكثر من "بيتهوفن" يا سيدتي، تنشدين داخلي سمفونية الحياة لأحيا بها من جديد، يتراقص قلبي نغما وطربا لعزفك، تتجمد أوصالي وتنسكب العبرات على جفوني فيتبلل الفؤاد حزنا بعزفك.

أنا يا سيدتي فارس قرر الموت في سبيل حبك طوعا لا كرها. حاملا ترسي في ذراعي اليسرى، وعلى يميني سيف بتار أقتل به كل من يطعن في شرفك.

أنا أحد الفدائيين الذين رفضوا أن تعلق الأوسمة على أعناقهم، لأني وبكل بساطة كنت أعلم أن الجهاد في سبيل حبك واجب لا يستحق أي وسام.

أنا الذي لم أتوان قط عن قتل الأعداء دون هوادة، أنا الوحيد الذي ظللت في ساحة الوغى أقاتل بكل ما أوتي قلبي من قوة حتى قتلت، ولقد كان شرفا عظيما أن أموت في سبيل حبك يا سيدتي.

كزهرة أنت وسط الزهور لا يقربك إلا الطاهرون، تجذبينني برائحتك العطرة، وجمالك الفاتن، كنت أصنع منك إكليلا من الورود فأضعه فوق رأسي، فجمال روحك الطاهرة واسمك المقدس لاينبغي أن يكون إلا فوق الرؤوس.

ولكي تقتليني جعلتك تبتسمين ذات مرة، كانت ابتسامة عذبة يذوب لها القلب، وتتصدع لها الجبال وتنحني لها جميع النساء..

كنت أريدك أن تقتلي جميع من في الأرض بتلك الإبتسامة فأبقى معك لا يشاطرني فيك أحد، لكنك قتلتني وحدي وتركتهم أحياء، وقد كنت أظن أن الأحياء سيلقون منك ابتسامة أخرى لكنك فاجأتهم واستدرت نحوي وحملتني قتيلا بين ذراعيك.

لم يكن قتلك لي خطيئة، وإنما كان إحياءا لأشياء داخل قلبي كانت قابعة هناك، فبعد أن رأيتك، تغيرت الحياة بالنسبة لي ،كان مجرد الشعور أنك ستكونين لي كافيا كي أحب هذا العالم الكئيب.

أتذكر أول خطاب لنا، كنت أشعر بالسعادة تجتاح صدري، لم أكن أصدق أنك وافقت على الحديث معي، كنت يائسا قبل ذلك، وكم كنت أتوق للحديث معك، أتذكر حينها أنني أعربت لك عن حبي، وكنت تماطلين وتكرهين كلمة " أحبك"، لكني كنت على علم أنك تحبينها، ولهذا كنت أكررها بين أي موضوع كنا نناقشه، وكنت تقولين:

"إذا كنت تحبني حقا، فلا داعي لهذه الكلمة المنمقة".

لكن سرعان ما كنت أقلب عليك الطاولة فأفوز، ويعلم الله أن كل كلمة كنت أتفوه بها، كان مصدرها القلب فحسب.

لا تأتي مني كلمة إلا وتكون مخالجة بشعور الحب تجاهك،.... نعم ...

كنت تكرهين تلك الكلمة، لكنك الآن أصبحت تقولينها أكثر مني، وكنت تقتلينني في كل حرف تنطقين به، وكأنك كنت تخبئينها في قلبك لمثل هذا الوقت كي تردي لي الصاع صاعين، وقد كانت هذه عبقرية منك.... يااااااا....

أحبك...

أفتقدك وأفتقد معك تلك التفاصيل الصغيرة التي لطالما كانت تغمرني بالسرور، أفتقد تلك المحادثات الهاتفية التي كنا نقعد الليل كله فلا ننهيها، أفتقد ذلك الشعور الذي كان ينتابني عند كل كلمة تقولينها، أفتقد تلكالإبتسامة التي لا تفوتك كلما قلت لك أنني سعيد بك، أفتقدك حقا عزيزتي. إن سرعة الأيام التي نحن فيها لا تتوقف أبدا، وكذلك الشعور ودقات قلبي وأنين عقلي وغياهب النسيان التي أغوص فيها كل يوم، لا تنتهي أبدا.

إن الأفكار السامية تجاه الحب لا تنفك تتكالب علي طول هذه الأيام التي فارقتني فيها، فأظل أكتب لك كالمجنون منتظرا مجيئك بفارغ الصبر،كنت أساق دائما في كتاباتي نحو هوّة سحيقة، الحبر لا ينفد مداده،وتفكيري تجاهك لا ينقضي، لقد افتقدت حقا تلك الأيام التي كنا فيها سعداء لا يعكر صفو حبنا شيء.....

لقد كان شعوري عندما وقعت في حبك كشعور طفل صغير وجد لعبته

المفضلة تحت سريره القديم، ما كنت أحلم بالحب أبدا، كنت كلما سمعت

شيئا منه أنفر، فلقد كنت لا أطيقه وأنبذه، أقسمت ذات يوم قبل أن أراك

أن لا أحب أبدا، لم أكن أتصف بالمثالية كما كان يدعي البعض، لكنني

كنت انطوائيا قليلا، أهرب من كل ما يثير حفيظتي، ويقض تفكيري،

لكن سرعان ما تغير كل شيء في رمشة عين، سرعان ما تغيرت

دقات قلبي في انتظامها، وكأني رأيت ملاكا حينها، وقد كنت ملاكا بحق.

أتذكر هذا المشهد دائما وأبتسم، أبتسم لغطرستي التي كانت قبل ذلك،

ولذلك النفور داخلي تجاه الحب، وأبتسم كذلك لأنني كنت أعلم جيدا أن

تلك النظرة كانت مختلفة عن سابقتيها، وأنك حقا شخص مختلف.....

حوار مع صديق

قلت له:

ــأتراها بعد كل ما قاسته من ألم تحبك يا صديقي...؟

حدجني بنظرة حانقة ثم أردف:

ـــولم لا أيها الغبي، حتى وإن كان ألمها كبيرا، فإن ألمي يساوي ضعف آلامها، إن حبها لا يزال يهشم قلبي من حين لآخر، وتقول أنها لاتحبني!!!

إن كان ما تقوله صحيحا يا صديقي، فسأقتلع قلبها من صدرها وأجعله طعاما للذئاب الضارية، لكي تعلم جيدا أن قلبي ليس لعبة في يد أطفال صغار...

تنهدت تنهيدة خفيفة وقلت بصوت يشوبه الضحك:

_أمزح معك فحسب، لربما كانت تتعذب أكثر منك في الحب وأنت لا تدري.

رفع رأسه للسماء قليلا ثم قال:

_وأنت، ألا تحب..؟

يبدو عليك الفرح وكأنك لم تجرب الحب يوما.

_حبي ياصديقي غريب الأطوار قليلا، ولهذا تجدني هكذا.

_ كيف...؟

لم أفهم...!!

وجدته يسألني بشوق فلم أشأ إخباره عن حبي لك، لكنني ألهيته ببعض الأسئلة حتى تناسى الأمر تماما .

أخبرني إذا، هل وجدت لذتك في هذا الحب ...!!

وهل هو مؤلم لهذه الدرجة ؟

أطرق برأسه ثم أردف قائلا وعيناه مبللتان بالدموع :

_إنني أجد لذتي في هذا الحب أكثر مما أجده في هذا العالم المليء بالحمقى ، إن الحب يرفعني دائما إلى الفضاء الخارجي ، حيث لا

بشر هناك ولا طيور ولا حتى أنفاس المنافقين ، إنه ينسيني أنني بشر، يجعلني مختلفا ، يجعل تفكيري غارقا في أوهام الأحلام، وذاك

ألذ العذاب يا صديقي .

إن ألم الحب لا يمكن تذوقه إلا بالتجربة فقط، أما أنك نظرت نظرة إعجاب فهذا ليس بتجربة، وإنما التجربة أن تقدم قلبك كله وروحك كلها، وجسدك بأكمله، هناك يحصل الحب، إنه مؤلم جدا، ولو جئت أقص عليك الليل كله ما انتهيت....

ـــحقا إنك أكبر عاشق رأيته في حياتي، ولكن أخبرني، فأنا في حيرة من أمري، إذا كانت تحبك حقا، فلماذا كل هذا الحزن على وجهك... ؟

- أنا أيضا لا أدري، لربما كان هذا حال كل العشاق على وجه الأرض.

-ابتسم يا صديقي، فالأمر لا يحتاج كل هذا العبوس، وأظن أنني سأتركك الآن، فقد تأخر الوقت عن النوم .

صافحته ثم رحت في الطريق أحدث نفسي كالمجنون ...

أيكون حبي لك هكذا حقا ...!!

أأستطيع أن أحزن مثله هكذا ذات يوم ...!!!

إن حبنا غريب حقا...

هو يعلم أنها تحبه، ولكنه يائس، وأما أنا فأكاد أجن من الفرح.

لقد كذبت عليه عندما قلت له أنني سأذهب للنوم، لم أكن لأنام في ظل ذاك الشعور الذي راودني في حديث صديقي...

وصلت البيت ودلفت إلى غرفتي، جلست على كرسي مكتبي وأخذت قلما وورقة بيضاء ثم رحت أكتب، بدأت أكتب كل شيء عن حبي لك، انهمكت في الكتابة حتى أسدل الليل غطاءه وأسدلت معه عيوني رموشها السوداء....

استيقظت على صوت أمي الحنون تناديني ووجهي لا يزال على المكتب،

سألتني باستغراب:

لم تنم في فراشك يا بني.. ؟

وما كل هذه الأوراق المبعثرة فوق مكتبك.. ؟

أجبتها بصوت فيه شيء من الخمول بعد أن لململت أوراقي وأدخلتها في حقيبتي:

_لقد جئت متأخرا ليلة أمس، وقد انهمكت في الكتابة حتى غفت عيناي.

تركتني وذهبت لإعداد الفطور بعد أن أخبرتها بكل شيء، لكنني لم أرد إخبارها عن محتوى تلك الأوراق بعد أن سألتني عنها، كنت قد أخبرتها أنها مجرد أوراق مدرسية كنا قد أمرنا بتجهيزها.

أعدت لي الفطور فتناولته بسرعة كعادتي، ثم ارتديت معطفي وحقيبتي السوداء، وبعدها هممت للباب كي أفتحه، فاستوقفني صوت أمي:

ـــإلى أين يا بني... ؟

أجبتها أنني سأذهب عند أحد الأصدقاء، وربما سأتأخر حتى الليل. وافقت على ذلك، ثم انطلقت مسرعا إلى ربوة ذات قرار ومعين.

لم أكن أريد الذهاب عند صديقي في مثل ذاك الوقت من النهار ، لذلك اتجهت إلى ربوة هادئة كي أكتب لك..

وصلت الربوة وبعدها جلست ووضعت حقيبتي الجلدية قرب صخرة بعد أن أخرجت كتابا وقلما وبعض الأوراق البيضاء، كنت أتأمل ذلك النهر الجاري تحتي، وتلك الأزهار اليانعة حولي، والسماء الصافية من ضجيج العالم، كنت أراك حينها وسط الزهور ترقصين رقصة الفرح، والزهور من حولك ترقص وتصفق برائحتها الزكية، وكنت أنا أراقب في صمت والقلم يجري في بحر من البحور، صمت يليه صمت، وشعوري يتدفق في قلبي، غيوم السماء وسطوع الشمس الدافئة، ومياه تجري في الحقول.

على الرغم من أنني كنت وحيدا، إلا أنني أعلم أنك معي، تشاركينني همومي وأوجاعي، وتساندينني في قصائدي وأشعاري، لم أكن قط لأشعر بالوحدة بتاتا، خاصة وأنك ساكنة في قلبي لا تفارقينني...

كنت أكتب لك وأتأمل في الوادي وأقول في نفسي.

هل يا ترى كان امرؤ القيس عاشقا أكثر مني...!!!

هل كان مجنون ليلى ومجنون لبنى وكل هؤلاء المجانين أكثر عشقا مني...!!

أشعر دائما أنني أفوقهم في هذا....

ظللت جالسا حتى استقرت الشمس في كبد السماء واشتد وهجها، فقررت أن أذهب إلى صديقي الوفي وأجلس معه أحادثه في مسائل الحب فكلامه يعجبني كثيرا، وعاشق مثله لا يمكن أن يكذب في شعوره،

اتجهت نحو بيته وطرقت الباب ببطء، وبعدها خرج إلي ورحب بي

قائلا:

_أهلا أيها الصديق، كيف حالك... ؟

وما سبب هذه الزيارة المفاجئة، فأنت لم تعتد أن تزورني في مثل هذا الوقت من النهار.

أجبته وبسمة عارمة لا تفارق وجهي أبدا:

_لقد اشتقت إلى حديثك البارحة، وقد أتيت لتعلمني مبادئ الحب، فكلامك يشعرني بالطمأنينة.

قهقه بصوت عال ثم قال:

-أنت تمزح معي، هيا إذا، تفضل لتستريح من تعبك وتتناول معنا بعض الطعام، وبعدها نتحدث حتى الصباح.

أخبرته أنني لا أود تناول شيء فأنا لست بجائع، لكنه أصر أن آكل معه، وياله من صديق رائع، تناولنا الطعام وبعدها جلسنا نتحدث في هدوء، سألته بينما كان يجهز مقعده للجلوس بجانبي:

__أخبرني يا صديقي، هل ما زلت طامعا في هذا الحب، أقصد ألا يمكنك التخلي عنه أبدا.

تنفس الصعداء وبعدها أجابني بخشوع وكأنه مستعد لإلقاء خطاب:

__يجب عليك أن تعلم أن من يحب، لابد وأن يسعى من أجل ما يحب، فالحب في نظري ميدان قتال، إن خسرت معركتك فيه، أصبت بالويلات والعذاب المهين، وإن انتصرت، فهنيئا لك بنشوة الإنتصار.

الحب في هذا المجتمع شيء نادر حقا، وإن وجدت حقا من يحب بقلبه، فإما أن تكون معجزة أرادك الله أن تراها، أو أنه حب من طرف شخص واحد.

إن الحب وطن ونحن سكانه، ولا ينبغي للمواطن هدم موطنه مهما كان، و إن من يحافظ على شرف الحب لهو العاشق الحقيقي، ولا يمكن مقارنته بهؤلاء الحثالى الذين تراهم يتسكعون ليل نهار في الطرقات ويدعون أنه حب، وليس ذلك إلا اغتيال شخص لشخص، وليس إلا

تدميرا للحب واجتثاثه من جذوره، وكم أكره هذا الحب الزائف...

ــــوماذا عن حبك أنت، أيكون معجزة لي أن أراه...؟

استنشق بعض الهواء وبعدها أكمل:

ــــربما قد يكون معجزة لك، وربما معجزة لي أيضا، فأنا دائما ما يراودني ذلك الشعور بالذنب تجاه من أحب، فأخاف أن يحبني ويشقى معي.

سألته في حيرة، ولم الشقاء يا صديقي... ؟

ــ إنه شعور بالذنب يراود المرء كلما فكر فيه، أخاف أن أعدها بشيء لست قادرا عليه، أو أن أعلقها بأمل زائف، مع أنني لن أفعل، ولكن، أخاف أن تنفلت زمام الأمور من يدي في اللحظة الأخيرة.

ربتُّ على كتفه وقلت بصوت يملأه الأمل:

ــلا تخف من هذا أبدا، فأنا أثق أن الله لن يخيبكما ما دمتما تسيران في الطريق الصحيح، فحبكما شريف ونيتكما خالصة.

وضع يديه على وجهه ثم أجهش بالبكاء كالطفل الصغير ، لقد يئس من كل شيء، إنه يحتاج لحضن امرأة تنسيه آلامه وأوجاعه ياعزيزتي، إن البكاء قد يشفي غليل الإنسان أحيانا، لكنه لا يطفئ تلك النار المستعرة داخل القلب كاللهيب....

احتضنته بين ذراعيّ وقلت له:

-لماذا تبكي يا صديقي...؟

أرجو أن لا أكون قد أزعجتك بسؤالي هذا.

أجاب بينما كان يمسح بأصابعه قطرات الدمع المتسللة بين جفونه.

-لا يا صديقي، لا تقل هذا أبدا، لقد تذكرت فقط ذكرى حزينة ولهذا

تراني أبكي.

-لا تكذب علي، فأنا أعلم أن الرجال إذا بكوا، فإنما يبكون لشيء عظيم،

وربما هذا الشيء، هو الحب.

-لن أخفيك شيئا، فأنت خير من يعلم بحالي.

أعطيته كوب ماء بارد فشربه وبقينا نتحدث حتى جن الليل، خرجنا من المنزل وجلسنا على عتبة الباب نشاهد منظر النجوم، وبينما كان يحدق في السماء بتمعن بادرته بسؤال:

-ألا يذكرك هذا الليل بشيء...

أجاب مستغربا:

-لا، وبماذا سيذكرني يا ترى... ؟

-لقد ذكرني هذا الليل الدامس وهذه النجوم الساطعة بقول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله

علي بأنواع الهموم ليبتلي

-حقا لقد نطق بما يختلجه قلبي.

-نعم أنا أحبه..

أخبرني إذا، هل أخبرت أباك وأمك بحبك للفتاة أم أنك لا تود إخبارهما بذلك.

—إن هذه الفجوة بيني وبين عائلتي لا تسمح لي بأن أقول شيئا، وحتى وإن أخبرت والدي بالأمر، أنت تعرفه جيدا، إنه متعصب لكل شيء، يقول لي:

"إعمل واكسب المال كي تعيلنا ودع عنك هذه الأشياء التافهة

فأنت مازلت صغيرا...

أتعجب دائما لماذا ينعتني بالصغير مع أنني في سن كبيرة.

ليس الحب صعبا يا صديقي..

يمكن لأي شخص أن يحب بصدق، لكن المشكلة هي تلك العوائق التي يتلقاها المرء من أشخاص لا يراعون كيف أن قلبك سيتقطع إلى أشلاء لو أنك تركت هذا الحب..

لاتهمهم سوى مصالحهم..

أتذكر أن والدي ركلني برجله يوما لما رآني نائما فوق الأريكة،

وقال بصوت متهكم:

ــانهض أيها الكسول، أمثالك يسارعون في العمل، وأنت نائم لا تدري ماذا تفعل.

نزلت من فوق الأريكة وكلي غضب وسخط، خرجت من المنزل دون عنوان، كنت أود الهروب بلا رجعة، لا أعلم يا صديقي لماذا ينجبوننا ويعذبوننا هكذا، أتذكر ما قاله دوستويفسكي:

"لو كانت ولادتي مرهونة بإرادتي، لرفضت الوجود في ظل ظروف ساخرة إلى هذا الحد"

قاطعته ثم أردفت بعد ذلك:

-لاتقل مثل هذا الكلام، مهما كان الأمر فهو والدك، وهو يحبك لدرجة لا تتصورها، ربما كان الأمر خيرا لك، لذلك لا تتسرع في الحكم أبدا...

كنت أتأمله يا عزيزتي في كل حرف كان ينطق به، إنه يعاني في الحب أكثر مما يعانيه الآخرون، صدقيني إن قلت لك أنني تعلمت شيئا ثمينا منه، إنه الوفاء، رغم تلك الظروف

التي يعيشها، ورغم تلك العراقيل التي تقف في طريقه، إلا أنه مازال متشبثا بحبه، تعلمت منه أن الحب يأتي بالتضحية ، لا بالكلام فقط، إنني الآن أكاد أجزم أن الحب بيننا سيظل شامخا إلى الأبد......

حبّ وانكسار

مضى على رحيلك سنتان ونصف، وخمس ليال وأربع ساعات وسبع دقائق، كان يوما حزينا على قلبي، لم أشعر في حياتي أنني سأحزن إلى تلك الدرجة، لا تمضي علي ليلة إلا وأتذكرك فيها، أتذكر وقتها كل الأشياء الصغيرة التي وقعت بيننا، كانت أشياء صغيرة حقا ، لكن عظمتها لا زالت في قلبي لا تتزحزح.

أتذكرين يوم كنا نرتاد ذاك المقهى الشعبي، كانت أضواء الشوارع خافتة، وقطرات المطر تهطل ببطء، والناس يمشون مهرولين كي يختبئوا في إحدى الزوايا التي تحجب المطر عنهم.

كنت حاملة حينها كتابا في يدك اليمنى، كنت قد أهديته لك من قبل، لم أرك سعيدة أكثر من ذلك اليوم، جلست على الكرسي المقابل لكرسيي وبدأت تنظرين من زجاج المقهى وأنت تعبثين بخصلات شعرك .

كنت أراقب تصرفاتك كلها، كنت أنيقة للحد الذي يجعل أي شخص يفتتن بك، سألتني وقتها:

-لماذا تشرب القهوة دائمًا.... ؟

فأجبتك أنها تنسيني كل شيء إلا أنت، تنسيني أنني أجلس معك، بل وترفعني إلى عوالم أخرى....

رشفتِ رشفة من العصير وبعدها أخذت تقلبين صفحات كتابك بتمعن بعد أن وضعت نظارتك على عينيك الجميلتين، ورحت أنا أحتسي القهوة متأملا تفاصيل وجهك الصغيرة، وتعابيرك القاتلة، وابتسامتك الساحرة كلما قرأت عبارة رائعة من الكتاب....

كان كل شيء هادئا في المقهى، إلا من ذلك المطرب صاحب الكمان. العشاق يتهامسون بهدوء، نادل المقهى يتحرك هنا وهناك تلبية لطلب زبائنه، المقهى تحيطه أربعة جدران ونافذتان وطابق علوي كان قد أشرف عليه مالكه" سليمان " وأعطاه رونقا وجمالا مما يسمح لكل من رآه بالدخول إليه، لم يعجبني شيء هناك أكثر من لباسك التقليدي الذي كنت ترتدينه، ثوب مرصع بالجمال والوقار...

أغمضت عيني لدقائق أستنشق فيها رائحة القهوة الزكية، بينما كنت أنت منهمكة في قراءة ذلك الكتاب اللعين، كان كل شيء هادئا حتى دخل علينا فجأة، رجل بثياب سوداء رثة ولحية كثيفة وشعر أسود عميق للغاية، كان قصير القامة جدا، وكأنه أحد السجناء الذين أفرج عنهم للتو، اقترب حينها من النادل وقال بصوت مرتفع:

__أريد شرابا لو سمحت.

أومأ إليه النادل برأسه وأشار إليه بالجلوس على إحدى الكراسي الفارغة.

بقيت أتأمله كثيرا وكأنني رأيته من قبل، لكن أين... ؟

لا أدري، كل هذه الأفكار كانت تغزو عقلي وتشتت تفكيري، أردت الاقتراب منه قليلا، لكنني بقيت مسمرا في مكاني.

أخبرتك وقتها أنني سأذهب إلى قضاء حاجتي، لكنني في الحقيقة ذهبت لأرى من هو ذاك الرجل، اقتربت منه بحذر كي لا أثير انتباهه، وبعد برهة من التأمل، عرفت من هو، لقد كان عمي "أحمد"، دهشت وقتها فلم أستطع كبح شعوري وإلجام لساني فصرخت بدهشة:

عمي " أحمد" تسلطت علي الأضواء وبدأ كل من في المطعم يرشقني بنظراته لصراخي لكنني لم آبه بهم....

نعم لقد كان ذاك عمي أحمد الذي غاب عنا شهورا عديدة ولم يعد إلى الآن، بعد أن تحدثنا عن الأيام السالفة التي مضت. أوصلتك حينها للمنزل ولم أطمئن حتى دخلت منزلك. اتجهت بسيارتي أنا وعمي إلى منزله بعد إلحاح منه أن آتي معه. وصلنا للمنزل بسرعة، كان بيته بسيطا يحتوي على ثلاث غرف ومطبخ صغير ومكان للإستحمام، محاط ببستان صغير تفوح منه رائحة الزهور العطرة.

كان منزلا منفردا عن باقي المنازل. لم أكن أعلم أن عمي يمكنه أن يعيش وحيدا في منزل كهذا، لكن لكل حاله وأحواله.

جلسنا على أريكة رمادية اللون، ثم رحنا نتحدث حديث العجائز بعدما أحضر قنينة ماء ووضعها فوق الطاولة، تحدث بعد أن جلس إزائي:

-مرحبا بك ياابن أخي "حسام" كيف حالك مع الدراسة، هل سارت الأمور بخير في غيابي.

أجبته بابتسامة عريضة:

-لقد مرت الأمور على خير يا عمي، وقد أنهيت الدراسة الجامعية والتحقت بإحدى الكليات لأكمل مشواري الدراسي.

وأنت أين كنت كل هذه الأيام، لقد أطلت غيابك عنا.

جلس جلسة القرفصاء وبعدها أجاب :

__إنها قصة غريبة يا بني، سأخبرك بها، ولكن عدني أن لا تخبر أحدا.

قلت له وصدق باد على وجهي، لا تقلق، سرك في بئر.

__حسنا بني، سأخبرك.

لقد بدأ كل شيء في تلك الليلة المظلمة، حين رأيت امرأة تعبر الطريق متجهة إلى الرصيف، كانت غريبة الأطوار ترتدي عباءة سوداء كاشفة لشعرها، عيناها كانتا جاحظتين، كانت حالتها توحي بالذعر والفزع، تلتفت يمنة ويسرة من دون توقف، لم يكن في.ذلك الرصيف أحد غيري، لم تجد أحدا فأتت إلي مسرعة وكأن هناك أشباحا تطاردها.

أخبرتني وهي تلهث:

- سيدي أنقذني، إنهم يريدون سرقتي، لم أجد غيرك ألجأ إليه.

قلت لها بصوت هادئ:

-إهدأي سيدتي، أخبريني ما الذي حدث بالتفصيل.

-حسنا سيدي، ولكن ليس هنا، يجب أن نذهب إلى مكان ما، ربما قد يعثرون علي.

طمأنتها ثم أخذتها معي إلى المنزل.

أدخلتها فجلست على هذه الأريكة نفسها، مددت لها كوب ماء كي تلتقط به أنفاسها ثم أردفت تقول:

أشكرك جدا يا سيدي، لو لم تكن أنت هناك، لكنت هلكت تماما، قليل أمثالك في هذه البلاد.

قلت لها:

إذا أخبريني ماذا حدث لك، وكيف طاردوك.

عدلت من جلستها وبعدها قالت:

-لقد كنت في بادئ الأمر أسير في طريقي وحيدة كباقي الناس، ذهبت إلى المصرف كي أخرج نقودي هناك، وفي يدي اليمنى حقيبة الأموال وبعض مستلزماتي... نادى علي شخص لم أعرف من هو، لكنني لمحت من بعيد سكينا حادة كانت مخفية وراء ذراعه اليمنى، هرولت بأقصى سرعة، من الواضح أنهم كانوا جماعة، لكن واحدا منهم لحق بي فلم يستطع إمساكي.

فجأة قطعت الرصيف أبحث عمن أستجير به فوجدتك هناك يا سيدي.

خففت عنها ما بها وأخبرتها أن لا تخاف فهي في مأمن هنا... بعد عدة دقائق، طلبت مني هاتفي من أجل إجراء مكالمة مع أخيها الأكبر، أعطيتها إياه ثم أخبرتني بعدها أن أعطيها رقم المنزل وعنوانه وأين يقع ، أخبرتها بكل شيء عن المنزل، راحت تتصل به وبقيت أنتظر انتهاء المكالمة....تابع عمي بعد أن رشف من الماء قليلا:

بعد أن انتهت من كلامها، نظرت إلي بخلسة فوجدتني أنظر إليها

فابتسمت لي وقالت:

-ما اسمك أيها السيد المحترم... ؟

-اسمي أحمد يا سيدتي .

-اسم جميل.

قالتها بعدما استدارت نحو الغرفة تتأملها بشغف.

قلت لها:

-وأنت ما اسمك.... ؟

-خولة.

تملقتها قليلا، وبعدها طلبت مني أن أعطيها رقمي الخاص، لم أستغرب من طلبها، أعطيتها إياه ووعدتني بأنها ستتصل بي إن احتاجتني..

بعد ساعة من الإنتظار، طرق باب المنزل طرقات خفيفة، اقتربت حينها من الباب بحذر، كنت أظن أن الطارق أحد الذين طاردوها، نظرت من ثقب الباب فلم يظهر شيء، فقد كان الليل مسدلا رداءه الأسود على الأرجاء، حملت مصباحا يدويا في يدي وصعدت

السلم المؤدي إلى السطح بخطوات متثاقلة لا يكاد يسمعها أحد، فتحت باب السطح العلوي وتسللت نحو الواجهة المطلة على باب المنزل، أشعلت المصباح وبدأت أخفض توهجه إلى ضوء خافت، جعلت المصباح فوق رأسه ورحت أتطلع في هيأته...

قلت بصوت الشجاع:

-من بالباب.

أجاب بعد أن وضع يديه على عينيه:

-أنا سامر.

-من سامر هذا.. ؟

-أنا أخ خولة ، فهل هي هنا...؟

لم يكد يكمل كلامه حتى هرعت بسرعة نحوها، سألتها بينما كنت

ألتقط أنفاسي:

-هل أخوك اسمه سامر.. ؟

-نعم.

-إذا افتحي الباب، إنه الطارق.

تهللت أسارير وجهها من الفرح بعد أن سمعت هذا الخبر المفرح. فتحت الباب ببطء ليظهر شاب في مقتبل العمر له تسريحة شعر جذابة وعينان سوداوان لم أكد أرهما جيدا من شدة الظلمة، له هيأة الشرطي ذي البنية القوية، ارتمت خولة إليه وعانقته عناقا حميما.

أمطرني أخوها بكلمات الشكر بعد أن علم من أخته ما حدث، شكرتني مرة ثانية على صنيعي وسارت مع أخيها إلى إحدى السيارات المركونة جنب المنزل، كانت سيارة فاخرة الطراز سوداء اللون، كان من الواضح أنهم أثرياء للغاية، تقدما نحوها وفتحا أبوابها وانطلقا بسرعة حتى إذا ما اختفى نور السيارة، دخلت وأغلقت الباب من ورائي، لقد جافاني النوم كثيرا تلك

الليلة، ظللت أفكر في "خولة" بشكل عميق، أحدث نفسي وأقول لها" أتكون هذه الفتاة خلاصي الوحيد من هذه الوحدة القاسية، أيستطيع شخص مثلي أن يحب أيضا...

لا أخفيك أبدا يابني أنني حينما رأيتها للوهلة الأولى أحسست أن نورا يلج إلى صدري وينير جوانبه، وكأن الحياة ابتسمت لي أخيرا، لم أكن أعلم أن من في مثل سني سيسحرهم الحب، لكنني صدقت وآمنت بذلك لما رأيتها، لقد انقشع ذلك الضباب الذي كان يسدل الستار على قلبي، أصبحت الآن أرى بوضوح أكثر من ذي قبل، وكأننا نخلق عميانا فيأتي الحب ليجعل لنا بصرا نرى به جمال الحياة ورونقها الفني بكل صورة من صور الجمال ، بيد أنه لا يرحم يا بني، لا يرحم، يهب لك كل ما تريده، لكنه في اللحظة الأخيرة يغتالك ويقضي عليك.

سألته بغرابة:

-وهل خذلك يا عمي... ؟

-اصبر، أنا آتيك بما حصل بالضبط، ولكن الأمر أعمق مما تتصور، لن تتخيل مدى كل تلك الصعوبات التي تجاوزتها بمفردي، لم يكن هناك أحد، دافعت عن نفسي بنفسي ولم أجد من يساندني، وما كنت لأرضى بأحد، وأنت الآن تراني أشبه بالعجوز الهرم، وما علمت أن الحب يجعلك تهرم وأنت في زمن الصبا، ولو كنت أعلم أنه هكذا ما أكثرت منه، ولا جعلته يتغلغل ويتجول كيفما شاء، ولا بقيت أسهر الليالي وأعد الدقائق والثواني، وجدتني أتكلم مع نفسي أحيانا، وأحيانا أخرى كالمجنون يضرب أي شيء يعترض طريقه، نمت ليلتي تلك وعيناي

مفتوحتان لا تظهر فيهما إلا صورتها التي بقيت في مخيلتي... استيقظت في اليوم التالي على صوت رنين الهاتف، حملته في يدي وبدأت أنظر من المتصل، لقد كان رقما غريبا علي، سارعت في انتهاز الفرصة وقد كان عقلي يحدثني بأنها من تتصل، قلت بصوت

رقيق بعدما رفعت سماعة الهاتف:

-مرحبا، لم أكد أكمل كلمتي حتى تفاجأت بأن المتصل فتاة، تسارعت دقات قلبي وانقبض لساني وتلعثمت حروفي، وأحسست برجفة في جسدي، كان صوتا حنونا للغاية:

-أهلا أحمد، كيف حالك، ألم تعرفني.... ؟

أجبتها بينما كنت أمسك الهاتف بكلتا يدي من شدة المفاجأة:

-الحمد لله، لكنني لم أعرفك حقا.

-ولكنني أعرفك جيدا، أنا التي أنقذت حياتها ليلة أمس،"خولة"

-نعم تذكرتك جيدا، كيف حالك.. ؟ وحال أخيك "سامر"..؟

وما سبب هذا الإتصال المفاجىء يا ترى..

-لا شيء، فقط أردت الإطمئنان عليك، ثم أنني كنت أريد أن ألتقي

بك اليوم، أمام حديقة " الياسمين" إذا كنت ترغب.

نزلت كلماتها علي كالصاعقة، فأنا لم أتكلم مع فتاة من قبل، ولم أكن أدري أن للنساء مثل هذه الجرأة..

لم أجد حلا آخر سوى أن أذعن لطلبها..

كان صباحا حافلا بالفرح، لم أشعر بالسعادة قط في حياتي مثل التي شعرت بها في ذلك اليوم.

ارتديت أحسن ثيابي ووضعت عطرا وقبعة سوداء كانت مكسوة بالغبار لم أرتدها منذ زمن، وحذاءا بني اللون، خرجت من المنزل وكل رجائي أن أصل إلى المكان المعلوم...

اتجهت نحو الحديقة التي أخبرتني عنها، كنت أسير بسرعة وفرحة عارمة في قلبي، رأيت الناس تنظر إلي بغرابة، وكأن لسان حالهم يقول:

"ما بال هذا الأحمق يسير هكذا"

عندما يكون الإنسان على حالته المعتادة، تبقى نظرة الناس إليه كما هي.

أما عندما يحدث طارئ فإن نظرتهم إليك تتغير فجأة، خاصة وإن كان شخصا بائسا مثلي.

لم يزعجني ذلك فقد كنت أسير من دون وعي، كان يوما مشمسا، طيور الصباح تزقزق في الغصون، ونسيم الهواء يملأ رئتي بالنسيم العليل.

شعرت وكأن الحياة تدب في داخلي من جديد بعدما كنت في.سبات عميق، لم يكن هناك شيء يقودني غير الحب، الحب كان يدفعني تجاهها، لقد أغرمت بها منذ أول لقاء بيننا، ولو لم يكن الحب هو الذي يقودني لما ذهبت، ولما أعرت لذلك اهتماما.

أحسست أن عمي لا يحدثني ، بل قلبه من كان يفعل ذلك، تابع بعدما طرد من أنفه ذبابة لا تكاد تفارقه.

ـــ ما كان للحب أن يصنع بي كل هذا، لكنه يصنع أكثر مما نتصور.

اقتربت من ممر الحديقة الأيمن، كانت حديقة تحوطها أشجار الصنوبر، وبعض أشجار النخيل، رشاشات المياه تنعش العشب، وأزهار الأقحوان الجميلة، ومقاعد للجلوس وعمال منتشرون على طولها وعرضها، وقفت أمام بابها الصغير، سألني حارس الحديقة بعدما

كنت أهم بالدخول:

-إلى أين أيها السيد..؟

أجبته مازحا:

ـــ أيمكن أن يطرح سؤال كهذا يا سيد..؟ أنا ذاهب لأرى جمال الطبيعة

-اذهب من الباب الآخر فهذا الباب مغلق، ألا ترى اللافتة هنا.؟

اعتذرت له، ثم أكملت طريقي أحث الخطى متجها نحو الباب الخلفي ، دخلته وعيني لم تكفَّا عن رؤية الجمال من حولها وأنفي يستنشق رائحة الأزهار، الناس هنا يعيشون سعادة غير التي في الخارج، أطفال يهرولون هنا وهناك..

أخرجت الهاتف من جيبي ، وبينما كنت على وشك الإتصال، تفاجأت بصوت يناديني من بعيد، نظرت جيدا ألتمس مصدر الصوت، وفجأة رمقتها عيني من بعيد، ذهبت إليها متثاقلا أعدل من ملابسي ومشيتي، اقتربت من الكرسي الذي كانت جالسة عليه، كانت ابتسامتها حلوة وعذبة، رحبت بي واستقبلتني بحفاوة وقالت بصوت هادئ:

-اجلس يا أحمد.

جلست فبدأت أتأمل تعابير وجهها وتفاصيلها الجميلة، مرت دقائق ونحن في صمت مطبق، قطعته بسؤال قائلا:

-كيف حالك اليوم... ؟

-أحس أنني أسعد امرأة في الدنيا.

ابتسمت وقلت لها:

-ولماذا أنت سعيدة إلى هذا الحد.. ؟

-سعيدة لأني أجلس في مكان جميل، وهناك شيء آخر يسعدني، لكن لا أدري ما هو، كل ما أعرفه أن الحياة بداخلي قد بدأت تسري، الجلوس في مكان كهذا مع شخص مثلك يشعرني بالفخر يا أحمد، مع أنني لا أعرف عنك شيئا، إلا أنني علمت يوم أمس طيبة قلبك وشجاعتك، وصراحة هذا هو ما يسعدني أكثر.

-إن سعادتي تفوق سعادتك يا خولة، أن أحظى بمقابلة مع أجمل النساء شرف لا يعادله شرف، سأتحدث إليك بصراحة.

أنا من الأشخاص الذين يدخلون في صلب الموضوع دائما، وسأخبرك.بما يختلجه قلبي من دون تردد.

مع أنك أنت من دعوتني إلى هذا المكان، وأنت من يجب عليها أن تخبرني عن سبب الدعوة، إلا أنني علمت بطريقة لا شعورية أني من.يجب عليه أن يتحدث، لقد أعجبت بك منذ أول مرة رأيتك فيها، وقد.ظللت في ذهني تلك الليلة، أصابني الأرق، وحزبني الأمر كثيرا فلم.أستطع النوم، وما هو إلا وجهك يظهر أمامي بين الفينة والأخرى.يشغل تفكيري ويقض مضجعي.

-إنك تخجلني بكلامك هذا، حتى أنني لا أدري ما أقول.

-لا تقولي شيئا، لقد قلت كل شيء حين قابلتك، أخبريني،

كم عمرك... ؟

وهل سبق لك أن تزوجت، أو أعجبت بشخص ما.. ؟

-أنا الآن في العشرين من عمري، وأنا فتاة من عائلة ثرية، أقطن قريبا من هذه الحديقة، تؤرقني فكرة الزواج هذه كثيرا، حتى أنني أجد صعوبة مع عائلتي في تقبل الأمر، أرفض كل من يتقدم إلي، ولا أدري لماذا..؟ لكنني أعرف أنها فكرة سديدة ريثما أكمل دراستي وبعدها يأتي الشخص المناسب.

-فكرتك جميلة جدا، وأنا معك فيما تقولين.

-أشكرك، حسنا ربما سأتركك الآن، فقد وعدت أمي أن آتي سريعا إلى البيت.

-كما تشائين، هل أوصلك إلى بيتك، لربما يعترض سبيلك أحد ما.

-لطف منك، يمكنك ذلك إن لم تكن لديك مشكلة في ذلك طبعا.

-لا أبدا، بل إن الأمر يشرفني....

أوصلتها إلى البيت بسلام ووليت الأدبار راجعا إلى مقر سكناي. أحسست أثناء الطريق أن قلبي من يسير لا رجلاي، كان قلبي يرقص فرحا وسرورا لا نظير لهما، وأنت خير من يعلم أحوال العاشق حين تصيبه سهام الحب يا ولدي، لن أستطيع وصف ذاك الشعور حتى لو انتقيت أروع المفردات، لكنه شعور يفوق الخيال واللغة.

عندما وصلت إلى البيت دخلت الغرفة وأسدلت الستائر وأشعلت الأنوار، كنت أذرع الغرفة جيئة وذهابا، أصبت بالجنون الذي لم أصب بمثله من قبل، كنت أضحك من دون وعي، حتى الأشياء الصغيرة التي لم أكن أحبها، أصبحت أعطيها اهتماما زائدا، كالهاتف مثلا، أصبح لا يفارقني، وكذلك المشط وربطة العنق خاصتي، حتى شعوري أصبحت أحيطه باهتمام خاص.

قبل أن أقع في مصيدة الحب، كنت بلا قلب تماما، كنت أحس أنني مجرد نكرة في هذا العالم، إنه الحب، نعم إنه الحب الذي يعطيك الهوية التي تعرف بها قلبك، ويجعلك تعرف نفسك أكثر من ذي قبل، الحب يا حسام، أشبه بالسحر، هذا إن لم يكن هو السحر نفسه.

مضى على آخر لقاء ثلاثة أسابيع، لم أكن أتصل بها دائما خشية أن أزعجها، اتصلت بها مرتين فقط، وفي صبيحة أحد الأيام قررت أن أتصل بها، كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحا، أخذت الهاتف وبدأت أتفحص الأرقام.

ضغطت على زر الإتصال وانتظرت الرد، لكن المشكلة الكبرى هي أنه لم يجبني أحد، يظل الخط متصلا حتى ينقطع، اتصلت مرارا وتكرارا لكن دون جدوى، كان عقلي يحدثني أنها تفعل ذلك عن عمد، أو لربما خدعتني واستغلت طيبتي لها ولهذا قطعت الإتصال،

لقد كان عقلي مليئا بالأفكار، شعرت باليأس فخرجت أمام المنزل أستنشق بعض الهواء النقي، أقلقني أمرها فظننت للوهلة الأولى أن أمرا جللا قد أصابها، مر اليوم الأول وكأني جالس على الجمر، ثم الثاني والثالث حتى انقضى الأسبوع، قررت بعدها الذهاب إلى منزلها لمعرفة السبب.

ما كان يحق علي أن أذهب، لكن الفضول دفعني لذلك.

أتدري يا ولدي، أنه يأتي على الإنسان وقت لا يدري ماذا يفعل، ولا أين يتجه، ولا أين يبث مشاعره المكبوتة داخله، فقط يكتفي بأن ينغرس في أوهامه بحثا عما يشفي فؤاده، لكن الألم والوحشة تعصرانه إلى حد الإختناق، فيختنق ببطء شديد فيموت مستوحشا غريبا، تتبدد خيوط المشاعر لديه فيحس بالجفاوة تتملكه، فلا يجد لها شفاء غير النوم، وأنى للعاشق أن ينعم بالراحة حتى، وكيف وقد سمي الليل ليل العاشقين، أنين في رأسي، وانكسار للمشاعر في القلب يحثني على المسير إليها، وعقلي لا يكف عن مخاطبتي قائلا:

"لا تذهب الآن، انتظر حتى الصباح".

استكان الأمر وقررت المكوث إلى الغد، كنت أعلم جيدا ما سأذوقه من محن الشوق تلك الليلة، لكنني أصررت على البقاء غير آبه لما سيحدث.

دلفت إلى الباب بسرعة، مرت الساعات طويلا، حتى حل الصباح مطلا بنسائمه البهية، سطعت الشمس على وجهي فأزالت عني بؤس الأمس وغبار الحسرة التي كانت تحاصر وجهي بأُكمله، أخذت أفرك عيني بكلتا يداي، غسلت وجهي ورحت أعد الفطور، طرأت على ذهني فكرة عند انتهائي من الأُكل، كنت أظنها ستفشل.

قررت أن لا أزورها في بيتها فقد يعد هذا من خوارم المروءة، يكفيني أن أذهب إلى بيتها وأتعقب أحوالها دون أن أثير انتباها.

ارتديت الملابس وأخفيت وجهي بوشاح شديد السواد مطرز ببعض الخيوط البيضاء واتجهت مباشرة إلى مطلبي.

وصلت في تمام الساعة العاشرة، كان لابد من الإنتظار طويلا، لذا ذهبت إلى كرسي كان بعيدا عن المنزل بحوالي ثمانين مترا على ما قدرت، انتظرت نصف ساعة وشعاع الشمس يعمي عيني والشوق يحرق قلبي.

فجأة سمعت صوتا أنثويا ظاهرا، كان من الواضح أنه صوتها، ظهر ظل شخص أمام عتبة الباب وبعدها تقدم مسرعا.

كان شعرها منسدلا على وجهها، وعيناها تشعان وكأنهما لؤلؤتان في قعر بحر مظلم، ووجهها القمري أشبه بالزمرد، إنه تعاقب ليل ونهار في آن واحد، كانت تلبس أزرة وقلنسوة بيضاء وحقيبة يد صغيرة وكأنها ذاهبة إلى موعد مهم، أخذت أرقبها من بعيد واضعا يدي على وجهي منتظرا ذهابها.

ذهبتُ من الشارع الأمامي لفناء منزلها، لحقت بها أتعقب خطواتها، كان مجرد الشعور أني رأيتها كافيا لأن أعود أدراجي إلى البيت،لكن شيئا ما في نفسي يحثني على أن أسير خلفها، واصلت المشي بينما وقفت إحدى السيارات على الرصيف يلوح شخص ما في داخلها إليها كي تصعد، أمعنت النظر جيدا في صاحب السيارة فوجدته أخاها سامر.

كانت الخيبة تعلو وجهي والإحساس بالندم يفتك بقلبي لأنني تعقبتها،.نزعت الوشاح عن وجهي وعدت أدراجي أجر أذيال الخيبة.

عاودت الإتصال بها مرة ثانية حتى أتاني صوت رجل غريب لم أعرفه،.كان صوته متحشرجا، قلت بصوت متزن:

-أهذا رقم خولة..؟

-نعم إنه هو، ومن أنت..؟

-أحد أصدقائها، وأدعى أحمد.

-ما الذي تقوله أيها الأحمق، احفظ لسانك، فخولة خطبت منذ أسبوع،

فما الذي تهذي به.

أصبت بصدمة قوية يا حسام، سقط الهاتف من يدي، وارتعشت روحي.وبقيت جثة هامدة بلا حراك، سقط الهاتف من يدي وسقطت معه عبرات.من جفنيَّ، أيعقل أن يحدث كل هذا، "خولة" التي أحببتها منذ فترة،.تتركني الآن وتذهب، بعد كل الذي حصل، وبعد كل تلك المشاعر المتدفقة، وبعد كل ذلك السهر ليلا، تفلت يدي وتذهب في حال سبيلها.

سقطت مغشيا علي من إثر ما سمعت فلم أستفق حتى وجدت جاري" سعيد" ينضح الماء على وجهي ويوقظني..

استيقظت وحسرة الأمس لا زالت عالقة بي.

سألني جاري بعد أن استفقت:

-ما بك يا أحمد، ما الذي حل بك، أهناك خطب ما... ؟

أجبته وأنا واضع يدي على وجهي:

-لم يحدث شيء، كل ما في الأمر، أني سهرت حتى وقت متأخر من الليل فنمت على الأرض دون شعور.

-انظر لقد وصلتك رسالة للتو من امرأة مجهولة كانت تضع لثاما على وجهها، رأيتها تضع الرسالة في الباب وبعدها راحت مسرعة من دون أن تلتفت وراءها.

مد إلي الرسالة وعيناه تنظران إلي باستغراب، أخذت الرسالة منه.وشكرته على ما قام به، انصرف بعد ذلك، ورحت إلى الرسالة أتفحصها، علمت من المرسل، وكم وددت أن أخطفها من يد جاري.فأفتحها وأقرأ ما فيها، لكني تريثت قليلا، لم أشأ قراءتها في ذلك.الوقت إلا بعد أن أستعيد عافيتي من تعب الأمس.

وضعت الرسالة على المنضدة وذهبت أغسل وجهي بالماء البارد، أحسست بالضيق لما سمعته ليلة أمس، ولكن شيئا ما أعاد إلي البهجة قليلا، أغلقت الباب وأزحت الستائر عن النوافذ كي يدخل ضوء الشمس.فينير الرسالة ببريقه، لن أستطيع أن أصف لك ما شعرت به عند فتح الرسالة، كان الأمر أشبه بالذي يريد رمي نفسه من مكان سحيق.

بدأت أناملي ترتعد وقلبي ينبض بسرعة.

صدقني، إن كنت تحب شخصا ما حبا شريفا، فإن قلبك يرتعش سواء رأيته أمامك أو تذكرته في خيالك.

عند اللحظة الأولى لفتحها، ظهر حرف اسمها الأول..بدأت أوصالي تهتز، أي فرحة وأي ابتسامة تلك التي أبديتها عندما.وقعت عيناي على اسمها، إنها أشبه بفرحة الأم بولدها عندما ينظر.نظرته الأولى للحياة، أزحت الغلاف الذي يلفها كاملا وبدأت أقرأ...

"كن سعيدا دائما حتى وإن افترقنا فإنني أحبك"

-كيف حالك يا عزيزي، أرجو أن يكون قلبك بخير، وأن تكون هذه الرسالة مخففة عنك ما أنت فيه.

لقد كان آخر لقاء بيني وبينك حافلا بكل أنواع الحب والسرور، كنت.مسرورة بك يا أحمد، أحسست أني طفلة صغيرة في جانبك تريد.مزيدا من الدلال، أحسست أنني أسعد إنسانة على وجه الأرض، لم أكن شجاعة حين أخبرتك أنني سألتقي بك، ولكنني كنت مولعة بك لدرجة الجنون، جعلت من حياتي حكاية تحكى كل ليلة، لقد كانت مجرد فترة صغيرة عندما التقينا، لكنها كانت تساوي سنينا عديدة، سلبتني واقعي وأخذتني إلى قلبك، جعلتني أتذوق حلاوة الحياة بعد أن كنت غارقة في البؤس.

خلعت ذلك الرداء الذي كان يحوطني في قلبي بحبك، صرت أخط حروفك على جدار قلبي بأقلام العشق كي لا تمحى، جعلتني أحس أنني إنسانة تملك قلبا وشعورا تجاه أحد ما، صدقني أحببتك بكل ذرة في جسمي، أنت تعلم جيدا أنه يأتي على المرء أمر ما يحطمه ويهشمه فيجعله فتاتا، وأن هذه طبيعة الحياة، فها أنا ذا بعد حبي لك انقسمت أجزائي، وهاهو قلبي الآن ينقسم بين شخصين.

أنا أعلم أنك الآن غاضب مني وتكرهني، ولكن سأحكي لك القصة كما هي، وتأكد من أنني أحبك وسأظل كذلك إلى الأبد.

كانت الشمس قد أشرقت عندما استيقظت من نومي ذلك الصباح. أخذت أرتب فراشي كي أضعه في مكانه، كنت أشعر بالتعب لأن النوم جافاني بالليل فلم أستطع أن أنام إلا بعد حرب من التفكير فيك، كانت الساعة تشير إلى الثامنة، سمعت بضع طرقات على باب المنزل.

كانت طرقات خفيفة، رتبت فراش النوم وقمت لأغسل وجهي بسرعة كي أفتح الباب، لكن سرعان ما وجدت أمي قد فتحته، سمعت كلمات الترحيب من أمي وهي تقود ضيوفها إلى بيت الضيافة، لمحت امرأة كبيرة في السن قليلا، ووراءها رجل يبدو كزوجها، له عينان خضراوتان وأنف طويل وشعر ممتزج بالسواد والبياض، وبجانبه فتى أسمر البشرة له شعر بني وعينان سوداوتان، ولباس أنيق وكأنهم أتوا لحفلة ما، بقيت في غرفتي جالسة والحيرة تملأ رأسي،

مضت عشر دقائق منذ حين وصولهم، حتى تفاجأت بطرقات على باب غرفتي، لقد كانت أمي، عرفتها من خلال صوتها حين نادتني قائلة:

-افتحي الباب، لقد أتانا ضيوف يريدون خطبتك.

أفزعتني جملتها تلك، لم أدر ما أفعل، مئات الكلمات تسري في عقلي لكنني لا أستطيع البوح بها، احمرت وجنتاي من هول ما سمعت، أعادت علي بعد أن فتحت لها الباب:

ــ جهزي نفسك، ودعي عنك تلك الأفكار الصبيانية ولا تجعلينا أضحوكة أمام الناس.

ــ لا يا أمي، أنت تعرفين أنني لن أقبل بهذا، فأنا لا أفكر الآن بالزواج.

ــلقد كبرت على مثل هذا الكلام يا ابنتي، ثم إنك شابة ناضجة، لا يمكنك أن تستمري في عنادك هذا، لقد آن الأوان أن نفرح بك،.وأن نراك عروسة.

لم أجد ردا على ما قالته والدتي، فأجهشت بالبكاء دون وعي مني، وضعت يدي على وجهي وأنا صامتة في حيرة، والدموع تترقرق.بين الجفون مثل سيل جارف، لقد تذكرتك حينها يا أحمد، خشيت.على قلبك إن سمع هذا الخبر، تذكرت حبك لي، تذكرت تلك اللحظة

التي كنا معا، تذكرت كل شيء كان بيني وبينك، علمت أن دولاب الحياة سيتحطم بنا، علمت أن تلك السفينة التي صعدنا على متنها ستغرق بنا.

كنت أعلم أن ظروف الحياة لا تطيع العاشقين، علمت كل هذا، لكنني.أحببتك رغم ذلك كله، أحببتك لأنك لست كباقي الناس، كنت مختلفا عنهم، وقد أعجبني اختلافك فأحببتك، أحببتك وسأظل أحبك إلى الأبد.

كانت أمي تمسح الدموع من عيني بيديها وتربت على كتفي وتقول:

-لا تحزني يا بنيتي، فأنت سائرة نحو الخير، هيا امسحي عنك دموعك

وارتدي أجمل ما لديك من ثياب وتعالي معي، فالضيوف في انتظارنا.

ارتديت ملابسي وسرت وراءها بخطوات بطيئة، كان جسمي يرتعش وقلبي يخفق بشدة، سرت في جسمي برودة غريبة، كانت شفتاي ترتجفان كثيرا، كنت خائفة حقا من هذا المشهد، ألقيت التحية وجلست .

تركتهم يتكلمون في عدة مواضيع لم أكن أسمع منها إلا أسباب الزواج.وغيرها، لكنني لم أعر اهتماما فقد كنت منحنية الرأس تماما.

بعد أن انتهوا من حديثهم نظرت إلي أمي وقالت بصوت هادئ:

-ماذا تقولين يا ابنتي، لقد أتونا طالبين يدك لولدهم، فما رأيك في هذا.

نظرت إليها في استحياء وأهويت بعينيّ إلى الأرض.

-افعلي ما ترينه مناسبا.

-نحن نريد رأيك وموافقتك.

-حسنا وأنا موافقة يا أمي.

لم أكد أكمل تلك الكلمة حتى سالت عيناي بالدموع.

خرجت من عندهم واتجهت نحو غرفتي، أغلقت الباب بقوة ثم ارتميت أبكي على السرير، كنت أبكي بحرقة يا أحمد ، أبكي لأنني خذلتك وأعلنت موافقتي، أبكي لأنني سأتركك تتعذب بضمير حي، لكنني فعلت ما بوسعي لأجتمع بك، بذلت كل ما باستطاعتي لأكون زوجة لك،

لكن ظروف الحياة لم تسمح بلقاء عشيقين، لم تسمح باجتماع قلبين على دروب الحب، وها أنا ذا أندبك من حين لآخر.

انتظرت اتصالك عدة مرات كي أخبرك بالذي حدث، لكن أخي كان لي بالمرصاد، كنت منهكة جدا حين رن هاتفي أمام أمي وأخي، تفاجأت كثيرا لما رأيت رقمك، سألني أخي في حيرة:

-من المتصل.. ؟

-إحدى صديقاتي.

-دعيني أرى.

أخذ الهاتف مني بقوة، وبعدها حدث ما حدث...

إن أوراق الخريف تتساقط داخل قلبي، والماء الزلال ينسكب من عيني ، وقلبي أصبح مثل الرفات، أنهكتني قسوة الحياة ومرارة الإشتياق بحلاوة اللقاء، أحس أني فتاة تائهة في متاهة لا أستطيع الخروج منها، أظل.أفكر فيك بين عشية وضحاها، كنت أتمنى أن أشم نسيم رائحتك وبقايا وجهك في مخيلتي، الزوابع والرياح تأخذني عنك، أنا بعيدة عنك، لكن قلبي لا يكف عن النبض بحبك، أشعر بالإختناق، أول مرة أشعر فيها أنني مكبلة لا أقوى على الحراك، يا لجحيم الحياة وقسوة الأيام، آه لو تعلم أن حبك في قلبي كبير، ليتك تعلم كم تمنيتك لنفسي دائما، أسير معك أينما تسير وأروح أينما تروح، ليتك تدري أني أحبك يا عزيزي.

أكتب إليك الآن ودموعي تنهمر بين طيات هذه الرسالة، اشتقت لك.ولحبك الذي كنت تهبني إياه كلما كنت محتاجة إليه، اشتقت لبلسم حروفك التي كنت تتقنها، المشاعر داخلي تؤلمني كثيرا، وها أنا ذا أخط إليك آخر كلماتي، سأترك الآن العنان لدموعي لتنهي ما بدأته أناملي، وأتمنى أن تصلك رسالتي هذه..

وداعا يا صاحب القلب الكبير، وداعا يا حبي الأول، وداعا يا بلسم روحي، تذكرني دائما.. وداعا.

لما انتهيت من قراءة تلك الرسالة، كانت الدموع تنهمر من عيني وكأنها شلال من الأحزان القابعة في قلبي، كنت أشعر بالدنيا تحوم حولي، وبالدماء تسيل داخل أوردتي بسرعة كبيرة،

أحسست بحزن عظيم عند آخر كلمة قالتها، لم أصدق يا حسام، أنها ستتخلى عني بهذه السرعة، كنت أظن أن الحب بيننا سيطول، وأننا سنعيش السعادة الدائمة، وأن الحياة ستبتسم لي بعد كل هذا البؤس الذي عشته، لكنني ما وجدت من الدنيا إلا النكران والخيبة، غرقت في تفاصيل الحياة التي كانت مصدر بؤسي، كابدت أحزاني داخل ذلك البيت المقفر، لقد أصبح مظلما جدا بعد أن كانت الضياء تسري فيه حال حبي لها، أما الآن فقد انطفأ كل شيء، العالم أصبح كئيبا، صار الناس كلهم يتجاهلونني بل و يكرهونني تماما، حتى أن صديقي الوحيد" سعيد" ظل لا يهتم لحالي، بل أصبح يهرب مني كلما ناديته، كنت بشعا للغاية، لم أعد أهتم لنفسي كثيرا، أصبحت أهملها، أصبحت كالمجنون يهذي في الطرقات بثياب رثة وحذاء بال، وشعر قد نسجت فيه العنكبوت بيتا لها ولصغارها، غاب عقلي عن الحياة، لم أكن أتحمل شيئا، حتى نفسي صارت تمقت.العيش في هذا العالم.

مع أنني كنت مجنونا إلا أن حبها كان لا يزال ينبض في قلبي، كانت هي الوحيدة التي تغزو ذهني وتشغلني، لم أؤمن بهذا الحب، عرفت أنه يسلب منا الحياة، ويسلب منا الأشخاص الذين في قلوبنا، والذين أحببناهم بكل إرادتنا ورغبتنا في البقاء معهم.

جئت إلى البيت في ليلة كانت صاخبة بأصوات السيارات وعواء الكلاب، كانت أضواء المصابيح خافتة كعادتها، جلست على عتبة الباب، كنت منهكا من شدة السير فأخذني النوم بعيدا عن كل هذه الأصوات من حولي.

فجأة استيقظت على هدير سيارة كانت بالقرب من المنزل، كنت.سأنهض لأرى من، لكن قدماي خانتاني فارتطمت بالباب وسقطت أرضا، نظرت بعيني إلى الأعلى وأنا ملقى على الأرض، فإذا برجلين يحملانني، صفعني أحدهم على وجهي بينما انهال الآخر علي بوابل من الضربات بالعصى، سألني أحدهم:

-ماذا كنت تفعل هنا أيها السكير العربيد.!!

-ومن أنت حتى تسألني.!!

-معك شرطة المحافظة، هيا أجب...

كنت منهكا ونعسانا من شدة الضرب الذي انهالوا علي به فسقطت مغشيا بين أذرع الشرطيين.

استيقظت على دلو من الماء البارد سكب على رأسي، ارتعدت قدماي ويداي من شدة البرودة، بينما أخذ الشرطيان يقعداني على أحد الكراسي الخشبية بقوة، جلست ووضعت يدي فوق رأسي وبدأت أنصت إلى السكون المخيم على تلك الغرفة، قال لي أحدهم بعد أن مد إلي قنينة ماء :

-لقد اتضح لنا أيها الرجل أنك كنت تشرب في الطرقات وقد أدلى الشرطيان بدلائل ضدك، أخبراني أنهما شاهداك تسرق أمام باب.أحدهم، وهذه مسألة لا يغفرها القانون.

قاطعته كي أفهمه ما حدث، لكنه استوقفني قائلا:

-اصمت، أمثالك نعرف أكاذيبهم جيدا، فلا داعي لتبرير جريمتك، فليس من المعقول أن نكذب شرطيين ونصدق أحمقا مثلك، وخاصة.وأنت في هذه الحالة التي يرثى لها.

أردت الحديث مجددا كي أخبرهم بحقيقة الأمر، لكن الشرطي الذي كان واقفا خلفي، صفعني على القفا حتى لزمت الصمت، أحسست بالظلم الذي لم أشعر بمثله قط، ناداني بصوت غليظ:

-اسمع يا هذا، إن تهمة السرقة لا يمكن للقانون أن يمر عليها مرور

الكرام، وبما أنك مسكين وحالتك سيئة، قررنا أن نزج بك في السجن لمدة شهرين كاملين، هيا انهض الآن.

أمر الحارسين أن يأخذاني إلى السجن من دون شفقة ولا رحمة.

كابدت المعاناة الأليمة في غياهب السجن، كنت أتعرض للظلم من قبل السجناء الذين كانوا هناك، كان الأقوياء منهم يأمرونني بغسل ملابسهم وحتى الداخلية منها، أحسست بالقرف، لم يكن باستطاعتي التكلم خشية التعرض للضرب والشتم، حتى الطعام كانوا يسرقونه مني، فلا يدعون لي إلا بقايا خبز يابس وبعض الماء.

مر شهران على مدة حكمي ولم يمض معها يوم إلا والحراس ينهالون علي بالعصى، خرجت من السجن في الوقت الذي حددوه لي، كانت ملابسي متسخة وشعري كأنه غابة يعيش فيها أنواع القمل والبراغيت.

عندما خرجت من بوابة السجن الكبيرة، مد لي حارس بعض النقود وقال بصوت هادئ:

ــ خذها أيها الرجل لا بد وأنك تشعر بالجوع.

شكرته ورحت أهرول باحثا عن مطعم قريب من السجن أسد به جوعي وأسكت به بطني التي كانت تقرقر طوال هذه المدة.

لم أجد أمامي مطعما، لكنني وجدت مقهى قلت على الأقل أشرب شايا أو حساء إن وجد، وبالمصادفة العجيبة وجدتك هناك يا حسام.

سأقول لك شيئا.

- قل يا عمي، أنا أسمعك...

-لن تجد في هذه الحياة مكانا تذهب إليه وتقول أنا مستاء ومتعب جدا.

لن تجد من يربت على كتفك ويفرحك بكلامه، لن تجد من يقول لك كلمة واحدة تحثك في حين قلت أنك ستغيب، لن تجد من يقول لك ابق معي، لن أسأم منك أبدا، ولا من يقول أنا معك بكل كياني، ولا من يضمك بقلبه فتشعر أنك لست بمفردك، لن تجد أبدا من تذهب إليه بكل روحك المنهكة وتسند عليه كتفك فيتشبث بك وتتشبث به وكأن الواحد منكما هو الأمل الوحيد لنجاة الآخر.

ستجد فقط من تصفعك برودة رده، ومن ترجع من عنده خائبا أكثر من ذي قبل، لن تجد حتى الكلمات التي ستصف شعورك بها،

ستخذلك الحروف أيضا، ستتلقى الصفعات وأنت تبتسم ابتسامة بريئة، ابتسامة من يطلب من الآخر أن لا يتركه مهما حدث، تلك الإبتسامة التي تمتزج مع ملامح الوجه الكئيبة، ومع عيون متعبة توشك أن تدمع، ستظل تنتظر لعل شيئا ما سيحدث، أو أن رسالة ما ستصل.

لن يحدث شيء، ستبقى لوحدك تعيد سلسلة الذكريات، ولن أقول أنك ستبتسم، بل ستدمع عيناك حتى وإن كان الحدث جميلا، مرارة الاشتياق ستبكيك يا بني، ستبكيك....

لم أشعر أن عمي سيبكي في تلك اللحظة، لكنه بكى وانحنى والدموع تسيل من عينيه، جعلت أقربه مني وأهدئ من روعه، لكنه أبى إلا البكاء، أخذت منديلا ورقيا كان بجانب الطاولة، مددته له فبدأ بمسح دموعه، قال بعد أن انتهى من مسح تلك الخيوط الجارية على أجفانه:

ــعدني أن لا تخبر أحدا بما سمعته مني حتى لو كان والدك، فما قصتي هذه إلا كباقي القصص الحزينة التي تكتم عنها كل من عانى في الحب.

وعدته بأن الأمر سيكون سرا بيننا ثم ودعته مغادرا إلى البيت.

شغلت محرك السيارة وانطلقت بسرعة مخلفا ورائي دخان السيارة الذي سرعان ما تلاشى مع الرياح التي كانت تهب وسط أشجار الخيزران المحيطة ببيت عمي.

وصلت بسرعة خاطفة ثم شغلت بوق السيارة، وسرعان ما ظهرت أمي من بين النوافذ المطلة على الشارع لتفتح الباب.

قبلت رأسها فور دخولي واتجهت قاصدا غرفتي ومفاتيح السيارة ألهو بها كيفما اتفق، كنت منهكا فارتميت بحذائي على السرير أفكر فيما أخبرني به عمي، لم أشعر بالراحة وأنا بحذائي فقمت من مكاني ونزعته، نزعت الساعة من يدي ووضعتها على درج مكتبي، كان أزيز السيارات في الخارج قويا فلم أستطع إغماض جفني، أعددت كوبا من القهوة وبدأت أتأمل ما قاله عمي، أزعجتني قصته وأحزنتني،

حتى أنها أفقدتني حس التفكير، كيف يمكن لشخص أن ينكسر بسبب الحب، وكيف يمكن أن يكسر أحد قلب شخص أحبه، كل هذه الأفكار ت تجلجلت في رأسي مثل إعصار قوي، احتسيت قهوتي بروية متأملا سقف الغرفة، كانت الإنارة تعم أرجاء البيت، ظللت أحدق كثيرا في الضوء، بدت لي الغرفة غريبة قليلا، أحسست بدوار في رأسي، كانت الأشياء من حولي تدور بسرعة خاطفة، أصبحت أرى كوبي قهوة أمامي، أغمضت عيني وسقطت مغشيا علي إثر تشنجات أصابت عقلي، فألفيت نفسي في سبات عميق...

بين صرخات الحياة وآهات القلوب وضجيج المشاعر وجدت نفسي وسط كم هائل من الحزن الذي اعتراني وتملكني حين وقفت أراقب شبحا يحوم من حولي وسط تلك الغرفة المعتمة، جلت ببصري لأتفقد المكان الذي كانت تغزوه أنسجة العناكب وبعض الحشرات الصغيرة.

كان هناك ضوء ينير جهة من الغرفة، أما ما بقي منها فقد كساه الظلام بالكامل، أردت أن أتفقد باب الغرفة كي أعدو وأترك رجلاي للريح، لكن شيئا ما استوقفني، نظرت من خلفي فلم أجد غير الظلام الدامس واتجهت مسرعا نحو الضوء كي أرى بوضوح، لمحت الباب من بعيد وذهبت إليه مسرعا، خرجت من الغرفة حافي القدمين، أردت أن أركض لكنني لم أجد الطريق، نظرت من حولي، رأيت ضبابا وأشجارا تحركها الريح من كل جانب، رفعت بصري للسماء.

وجدت السماء تلمع بنجومها وقرص القمر يتربع وسطها وكأنه ملك بين رعيته يفتخر بما لديه من جمال.

أزحت عيني من السماء فلمحت على بعد مسافة قريبة شبح ظل رجل كان يرتدي عباءة بيضاء، في بادئ الأمر ظننته خيال شبح أراد إخافتي لكنني تأكدت من حقيقته عندما اقتربت ببطء خلفه.

كان رجلا طاعنا في السن له لحية بيضاء وشاربه يتدلى إلى فمه، كانت تبدو عليه هيأة الوقار والإحترام، كل شيء كان فيه أبيضا، حتى بعض خصلات شعره التي كانت تظهر من خلال عمامته كانت تميل إلى البياض، ألقيت التحية عليه فلم أجد ردا منه، كان شارد الذهن يدقق في النجوم، جلست وكلي أمل في أن أحادثه.

لم أسأل نفسي أين أنا ولا من أين جئت، ولا حتى ما اسم هذا المكان، ولا في أي عالم أنا، لقد جذبتني هيأة هذا الرجل فأنستني ما أنا فيه، ما كدت أحرك رجلاي كي أجلس القرفصاء حتى بادرني بسؤال:

يبدوا أنك غريب عن هذا المكان، ومن الظاهر أنك ظللت طريقك.

__ لقد عشت حياتي غريبا وسأظل غريبا، فمنذ أن ولدت إلى هنا

لم أعش إلا البؤس والكآبة، أعيش حائرا في حياتي بين أسئلة تختلط في رأسي وهواجس كبلتني بقيود الضياع والحرمان، وكنت أتساءل دوما، أتراي فعلت سيئة عظيمة أستحق بسببها هذا الذي يحصل لي.

__ألا تشعر أنك ابتعدت عن الله قليلا يا بني.

___بل كثيرا أيها الشيخ، أشعر أني أقصر من جهته.

ــإذا أصلح حالك مع الله تصلح لك الأمور كلها، فمهما ابتعد الإنسان عن الله إلا وزاده ذلك البعد ضنكا ومهانة، ومهما اقترب إلا وتيسرت جميع أموره.

-معك حق أيها الشيخ، أخبرني، من أنت... ؟

ــ أنا.

ــ نعم أنت.

-أنا عبد فقير ومغترب عاش حياته بعيدا عن الناس.

-وهل تجد راحتك في البعد عنهم.

-هذا أفضل بكثير من أن أظل محاطا بأشخاص لا يعرفون سوى الثرثرة في الناس والنيل من أعراضهم، ولا يحملون لك في قلوبهم ذرة حب، وإنما قلوبهم ملئت غلا وكرها شديدا، وانحطت أخلاقهم فصار عندهم الحق كالباطل والحرام كالحلال.

-للأسف معك حق، هذا ما نراه اليوم، لكن أريد معرفة أين أنا.. ؟ ومن أنت.. ؟

حينها نظر إلى السماء لبرهة ورفع يده صوب رأسي وبدأ يمسح على خصلات شعري وهو يقول:

ـــلا بد أنك الآن متعب، ويجب عليك أن تستريح يا بني، أرح نفسك من وعثاء السفر الذي أجهد عقلك وقلبك، وبعدها.......

استيقظت وعظام ظهري تتكسر من شدة السقطة على الأرض، وجدت نفسي ملقى تحت سريري، ورجلاي موزعتان في كل اتجاه.

ألقيت نظرة على الساعة بسرعة، كانت تشير إلى الرابعة والنصف زوالا، بقيت نائما حوالي نصف ساعة تقريبا، تذكرت الحلم الذي راودني في نومي وذلك الرجل الغريب الذي قابلته، أراحني كلامه كثيرا، لكن الشيء الذي بقي عالقا في ذهني هو أنه لم يكمل كلامه...

ماذا كان يقصد يا ترى عندما قال"وبعدها" لماذا وقف الحلم عند تلك الكلمة.... ؟

بدأت أترنح في مشيتي قليلا قليلا، أحسست بالدوار في رأسي، اتجهت نحو كوب القهوة كي أرشف بعض الرشفات التي ستوقظ رأسي من سكرته، أعجبتني لذة القهوة فسكبتها في فمي جرعة واحدة ، أخذت أتحسس يداي من شدة التعب، كانت تسري في جسدي برودة ساخنة.

استلقيت على السرير وأنا خائر القوى لا أستطيع النهوض، كل الأفكار المبهمة جالت بخاطري، حديث صديقي وقصة عمي التي ما فتئ عقلي يذكرني بها كلما تذكرته، والحلم الذي راودني وأنا في غيبوبتي، وأنت، أنت يا "زينب" كنت الهاجس الوحيد الذي يصاحبني في فترات راحتي وفرحي وحزني، أتخيلك دائما صوب عيني.

بعينيك البنيتين وشعرك المسدل على وجهك القمري، ورموش عينيك كسيوف حادة تقطع أوصالي.

يا ترى، ماذا تصنعين الآن.. ؟

كيف تمضين يومك بكل تفاصيله...؟

أخرجت الهاتف من يدي، فتشت جميع الأرقام التي كانت عندي وبعدها وجدت رقمك، أردت أن أتصل بك كي أطمئن عليك قليلا، وسرعان ما تراجعت يداي للوراء، ألقيت بالهاتف على السرير، كنت أعلم أنني إن تحدثت إليك فسأخبرك بكل ما لدي، وأنا لا أريد أن أخبرك بما يربكني ويخيفني، ولا أريد أن أقول أنا بخير، مع أنني لست كذلك. لم أشأ أن أشاركك همومي، أردت أن أراك بخير، وإن كنت أنا عكس ذلك فلا يهم، لا يهم بتاتا...

عادت رأسي تؤلمني مرة أخرى، قررت أن أذهب إلى الطبيب في الحال، فحالتي أصبحت متدهورة للغاية.

أخذت مفاتيح سيارتي واستأذنت والدتي بالإنصراف للطبيب حالا.

نادتني بصوتها الحنون، بعد أن هممت بفتح الباب.

_ ما بك حسام... ؟

_ لا شيء أمي، شعرت ببعض التعب فقررت زيارة الطبيب في الحال.

_حسنا اذهب سالما، وعد سالما.. اه.. كدت أنسى.

عندما ترجع إلى البيت لا تنسى أن تحضر معك بعض الخضار للعشاء، وبعض اللحم، سيأتينا ضيوف الليلة.

قطبت جبيني وسألتها:

_ من سيزورنا يا أمي.... ؟

ستأتي خالتك وابنتها ووالدها، وقد أخبرتني خالتك أنهم سيكونون عندنا الليلة، لهذا لا تتأخر.

ابتسمت ثم اتجهت بقبلة نحو جبينها، وقلت :

_حاضر يا أمي.

_رافقتك السلامة ، اذهب فأنا"راضية عليك".

اتجهت بالسيارة مسرعا نحو وجهتي، كان لابد أن أحضر ما قالته والدتي بسرعة، فالشمس قاربت على الغروب ولم تبق سوى ساعة حتى يسدل الليل غطاءه فوق السحب لتذهب الشمس ببريقها ويحضر القمر بنوره، غيرت فكرة الذهاب للطبيب إلى الغد، فالوقت لن يكفيني ويجب علي أن أحضر مع عائلة خالتي، وصلت السوق المركزي الذي كان يطل على باحة صغيرة ومسجد كبير، صرت أحدق في المارة كيف يسيرون ويتكلمون، كان مشهدي وأنا

وحدي في ذاك المكان فظيعا، تمنيت لو كنت معي اليوم هنا، تمنيت لو تهمسين إلي في أذني وتقولين:

"لا تحدق كثيرا في الناس" أفتقد غيرتك علي، تمنيت لو نكون جنبا إلى جنب في هذا الوقت بالتحديد، لكن لا بأس، سأحاول أن أعيش هذا اليوم من دونك، خففت عن نفسي وقلت، سأتصل بك غدا ريثما أعود من المستشفى.

دخلت السوق المركزي، كانت الأوساخ تعم أرجاء المكان، رائحة الدجاج والحوت العفن، وضعت يدي على أنفي واتجهت إلى محل بيع الخضروات، اشتريت ما قالته لي والدتي، وابتعت بعض اللحم من الجزار وعدت مسرعا نحو السيارة، وجمعت بها كل ما اقتنيته من السوق، رفعت عيني إلى السماء، كانت الشمس تلوح في الأفق معلنة عن المغيب، انطلقت مسرعا نحو البيت، كنت مسرورا بأن لدينا ضيوفا، فمنذ مدة لم يزرنا أحد، وبما أن خالتي ستأتي، أصبحت نشيطا للغاية، على الأقل أتحدث مع زوجها الذي لم أقابله في حياتي، سينسيني قليلا من التعب الذي ألم بي هذا اليوم...

وصلت إلى البيت وقد قاربت الشمس على الغروب، فتحت قفل السيارة الخلفي وأخرجت ما به من متطلبات والدتي، بادرت أمي بفتح الباب فور علمها بوصولي، رمقتني بابتسامة بعد أن أخذت ما بيدي، وقالت:

ـــأين تأخرت، أذهبت إلى الطبيب.. ؟

_كلا لم يسعفني الوقت كي أذهب فقررت الذهاب في الغد.

-إذا أحسست بالتعب فاذهب إلى غرفتك، سأعد لك بعض الماء الساخن وقليلا من الزعتر، ربما يخفف عنك وجعك.

_ لا تتعبي نفسك، سأذهب إلى مقهى قريب من هنا ريثما يأتي الضيوف ، اتصلي بي عندما يأتون.

_حسنا، اذهب في أمان الله.

اتجهت صوب المقهى الذي أجلس فيه دائما كلما أحسست بضيق في صدري فأخفف وجعي بتلك القهوة السوداء، لقد أدمنتها كما أدمنتك يا زينب، بل إنني صرت أخاف غيرتك منها.

ألقيت التحية بيدي على صاحب المقهى الذي كان يحفظ كل جزء مني، حتى أنه صار يحضر لي القهوة دون أن أطلبها منه، صار يعرف كل شيء عني الآن، جلست على الكرسي المقابل للشارع الذي كان يزدهر بالعديد من المارة، عمال بناء قد أنهوا عملهم في إحدى العمارات الكبيرة، وأطفال تغمرهم الفرحة رفقة والديهم، تمنيت أن يكون لدي ابن أحضنه بين ذراعي، لكن مع الأسف.

لم تمر سوى دقائق حتى وجدت القهوة السوداء تنثر رائحتها الزكية في أنفي، قال النادل بعد أن وضعها على المائدة.

ـــبالصحة والراحة.

ـــ الله يعطيك الصحة.

كنت أحتسي القهوة بروية فرمقت إحدى الصحف بجانبي، أخذت أنظر إليها جيدا، كانت صحيفة هذا المساء، ألقيت نظرة إليها وبدأت أقرأ بعض السطور في أولها، أحداث سياسية وأخرى اجتماعية، برلمانيون يترشحون، ومواطنون يرفعون لافتات المظاهرات، أحداث تعيد نفسها ولا شيء جديد في هذا البلد.

رميت تلك الصحيفة على الكرسي وبدأت أحتسي قهوتي التي تنسيني ضجيج العالم وتذكرني بك...

الحقيقة الوحيدة التي لم تكوني تعرفينها، هي أني كلما رشفت رشفة من ذلك السائل الأسود إلا وتذكرت معها ذكريات جميلة، أتذكر معها التفاصيل الصغيرة التي كنت تنثرين فيها سحر عينيك وجمال حروفك، وعطرك الزهري وبقايا روحك في ذاكرتي، أتذكر يوم قلت لك أنني

لا أستطيع العيش من دونك، ففاجأتني عندما قلت:

ـــ تكذب.

كنت أعرف أنك تريدين أن أظهر لك حبي في كلماتي وفي الواقع فأجبتك مبتسما:

ـــغدا سآتي لزيارتك في بيتك.

حينها ظهرت على وجهك هالة مقدسة وقلت لي :

- هل أنت مجنون، وماذا ستفعل هناك.. ؟

ــ سأخبر والدك أنني أحبك وأنني لا أستطيع العيش من دونك.

ــلن يصدقك أبي إن أخبرته بذلك، فلا داعي لأن تتعب نفسك.

ــ   وماذا لو أتيت أنا ووالدي ووالدتي وطلبنا منه يدك، ألن يقبل حينها.

علت وجهك حمرة وأهويت بعينيك استحياء من كلامي.

لا أخفيك أنك سحرتني وقتها، تمنيت أن يطول صمتك وأستمر في النظر إلى تلك العيون التي تضيء عالمي، لكنك قاطعتني وابتسامة تعلو ثغرك وخصلات شعرك التي كانت تنسدل على عينيك، كنت تمنعينها وتضعينها وراء أذنك بعفوية:

-أحقا تتحدث يا حسام.

-وهل أستطيع أن أكذب عليك يا زينب، إن هناك شيئا واحدا يدفعني لفعل

هذا، إنه حبك.

أصدقت الآن أنني لا أستطيع العيش من دونك..

-ليس حتى أتأكد من مجيئك أولا، وبعدها يمكنني أن أجزم بذلك.

ابتسمنا حينها ابتسامة حب لا زالت عالقة في مخيلتي إلى الآن، كنت ماهرة حتى في الكلام، لا زلت لا أعلم إلى الآن، كيف أحبت فتاة جميلة مثلك شخصا بائسا مثلي، ولا كيف سمحت الظروف بذلك، علمت حينها أن الحب يأتي مرة واحدة في العمر، وأنك إن أحببت شخصا بصدق، فإنك تغزو مخيلته دائمًا، أحببت نظارتك التي كنت تضعينها لرؤية الأشياء المهمة، كعبارة جميلة في كتاب، أو أن تنظري إلي، لا أدري أكنت لا أظهر لك جيدا، أم أن عينيك حقا لا تريان جيدا، أو أنني شخص ناقص يستحق أن ينظر الناس إليه بدقة.

أيقظتني من تفكيري رنة الهاتف التي كان صوتها صاخبا، كانت أمي من اتصلت، رشفت آخر قطرة من الكأس، إذ لم يكن من عادتي ترك شيء كما يفعل الآخرون، فعشقي لهذا السائل يزداد يوما بعد يوم.

أخبرتني أمي أن الضيوف قد أتوا وأن علي اللحاق بسرعة ،وضعت الثمن للنادل على المائدة وانطلقت، سمعت آذان العشاء فتذكرت أني لم أصل المغرب بعد، يا ويلي، أجلس من دون اكتراث في المقهى وأنا لاه عن صلاتي.

اتجهت نحو المسجد القريب من منزلنا، كان مسجدا يحوطه النور من كل جانب، بستان صغير على يساره يحوي العديد من الأزهار ذات الروائح العطرة، وعلى يمينه مصلى للنساء ومكان للوضوء، اشتقت أن أرى منظرا كهذا كل يوم، عندما أتذكر أني لم أصلِّ منذ مدة، أشعر

بضيق في صدري، دلفت إلى مكان الوضوء، توضأت ودخلت من الباب الكبير المزخرف بأنواع الحجارة الجميلة، صليت صلاة المغرب وانتظرت إلى أن أتى الإمام، كبر الإمام وكبر المصلون وراءه، بدأ في قراءة الفاتحة وتلى بعدها قوله تعالى.

"قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم" أحسست أن الإمام كان يخاطبني في هذه الآية، نزلت عبرات من عيني وأحسست بالقشعريرة، كنت أحتاج للبكاء حقا، بكيت بصدق يا زينب، بكيت بكاء لم أبكه من قبل، ظللت جالسا عند انتهاء الإمام من صلاته حتى اكتشفت أني تأخرت عن البيت...

لبست حذائي وانطلقت مسرعا نحو البيت، لازمني صداع في رأسي مرة ثانية، لكنني مع العدو لم أشعر به قط.

وجدث سيارة حمراء قرب البيت، لم أكن أعلم أن لزوج خالتي سيارة فاخرة كهذه، فتحت أمي الباب بعد أن اتصلت بها وأخبرتها أنني على الباب، لم أكن أريد طرق الباب فيفتتن الضيوف بذلك، قالت أمي بعد أن فتحت الباب:

- أين كنت كل هذا الوقت..؟

-لقد سمعت آذان العشاء فقررت أن أصلي وآتي بعدها.

ضحكت بمرح وقالت:

-منذ متى وأنت تحافظ على الصلاة في وقتها.

-الأوقات تغير الإنسان يا أمي، أكنت تظنين أنني سأبقى على حالتي تلك.

-بورك فيك من ابن مطيع، هيا بنا الآن، فخالتك وزوجها في انتظارنا.

-حسنا، وأين أبي ألن يأتي اليوم.. ؟

-لقد سافر إلى أمه وقال أنه لن يأتي إلا بعد انقضاء الأسبوع.

-كان عليه أن يخبرني، على الأقل أذهب معه أو أطمئن عليه، لكن لا بأس، هيا بنا الآن.

تقدمت أمي نحو خالتي فور دخولها تخبرها بمجيئي، دلفت إلى بيت الضيافة كانت خالتي وابنتها تجلسان في موضع واحد، أما زوجها فقد كان في غرفة المعيشة يشاهد التلفاز وينتظر مجيئي.

أمطرتني خالتي بكلمات الترحيب بينما اكتفت ابنتها "نهاد" التي تبلغ من العمر حوالي تسعة عشر سنة بمصالحتي، لم أر خالتي" سعاد" منذ مدة، كان آخر مرة رأيتها فيها عندما كانت هي ووالدتي في زيارة عند جدتي، ومنذ ذلك الوقت لم أرها إلى الآن.

اتجهت نحو المكان الذي يتواجد فيه زوج خالتي وحياء باد على وجهي حتى أنني لا أدري كيف سألقي التحية عليه، فأنا لم أعرفه من قبل، كيف سأتحدث إليه، وماهي المواضيع المناسبة التي سأتحدث بها معه.

تركت أمواج الأفكار تصطخب بشدة في رأسي واتجهت معانقا إياه بحرارة وشوق، كنت أشبه بأم تعانق ابنها السجين الذي أفرج عنه للتو، أو كطفل صغير اشتاق عناق والده بحب ولهفة، كان يربت على كتفي ويقول بوجه بشوش وابتسامة جميلة:

- ما شاء الله على البطل، تركتك في سن صغيرة، وها قد كبرت،

كيف حالك يا حسام..؟

بخير يا خالي والحمد لله، وأنت كيف هي صحتك وعملك.؟

_كل الأمور تجري في مجاريها يا بني، لقد أخبرتني خالتك بأنها ستأتي إليكم ففرحت كثيرا، لقد اشتقت إليكم كثيرا، ترى أين والدك.. ؟

_لقد سافر لرؤية جدتي في الجنوب، حتى أنه لم يكن يعرف بقدومك،

ولو كان يعلم لبقي ينتظركم إلى أن تأتوا.

-لا بأس عليه، رافقته السلامة، إذا غاب الأسد فشبله يحجب غيابه.

ابتسمت ملء شدقي وأحنيت رأسي إلى الأرض وقلت:

_بارك الله بك ياااا، سامحني فأنا لم أعرف اسمك بعد، لا تؤاخذني.

_آه لا عليك، هذا طبيعي، لم تعرف اسمي لأنك كنت صغيرا حينها، أنا "مالك" أعمل موظفا في إحدى الشركات الصناعية.

ـــونعم العمل الشريف يا خالي مالك.

ــحفظك الله ياولدي.

تبادلنا أطراف الحديث معا، كان يتحدث في أمور اقتصادية، ولم يثر انتباهي إلا موضوعا كان يتمحور حول الفقر والتهميش ببلدنا والدول الأفريقية المجاورة، فأخذت الحديث معه مطولا حتى حضرت مائدة العشاء.

جلسنا أنا وهو في مكان واحد نتناول عشاءنا بينما جلست أمي وخالتي وابنتها في مكان آخر، بحثت عن مشغل التلفاز فقد كان من عادتي أن أشاهد وأتناول في وقت واحد، أخذت أبحث في التلفاز علّي أجد ما يصلح للمشاهدة، طلب مني خالي أن أشغل قناة "الرياضية" لربما تكون هناك مباراة قائمة، أذعنت لطلبه وجلسنا نتحدث ونشاهد

إحدى المباريات، فجأة شعرت بنزيف في أنفي، ظننت أنه قليل، لكن سرعان ما صار أنفي ينزف بقوة، كان أمامي منديل أبيض جعلت أسد به النزيف كي لا تسقط قطرة على الأرض، سألني بينما رأى يدي والنزيف على المنديل:

-مابك يا حسام، هل أصابك شيء.. ؟

ــلا لم يصبني شيء، فقط نزيف وسيمر بسرعة، سأذهب إلى دورة المياه وأعود، تناول طعامك بالهناء.

بسرعة فتحت صنبور المياه وبدأت أصب الماء على جبيني كي يتوقف النزيف، بقيت هناك خمس دقائق حتى توقف بالكامل، مسحت أنفي جيدا من أثر الدماء العالقة به وأطفأت مصباح الحمام واتجهت إلى المائدة، شعرت بدوار في رأسي، كنت أحس بأن

رأسي ستنفجر، تحاملت وكابدت ألمي واصطنعت ابتسامة تجعل خالي يطمئن علي.

قال بعد أن جلست:

-أتمنى أن تكون صحتك بخير.

__إنها بخير لا تقلق علي.

_-هل يصيبك النزيف دائما.. ؟

__لا، إنه يأتيني مرة كل خمسة أيام، لكن اليوم مختلف عن سابقه، فقد طال النزيف لخمس دقائق.

__الأمر صعب، يجب أن تزور الطبيب كي تطمئن على حالتك. لم يكد يكمل جملته حتى ألم بي صداع أصابني بنوبة من الإنفعال، مسكت رأسي بكلتا يداي، أردت أن أصرخ بشدة، كان الألم يتفاقم شيئا بعد شيء، بدأت أتخبط في مشيتي لعل ذلك يخفف عني شيئا،

لكن دون جدوى، كان خالي يحدثني بكلام لم أكن أفهمه، كنت أرى شفتيه تتحركان فقط، أما الصوت فكان منقطعا، سقطت على أحد الأفرشة التي تغطي الأرض، جاء عمي بكأس

ماء بعد أن صرخ بأمي وخالتي كي تأتيا، كنت أشعر بالماء يتصبب من على جبيني وهم حولي، أمي تصرخ وتولول، أغمي علي فلم أجد نفسي إلا وأنا في المستشفى أتلقى العلاج، كيف حصل هذا.. ؟وكيف أتيت، لا أعلم....

كان أحد الأطباء يشخص حالتي بعدما استعدت وعيي وأنا مندهش عن سبب وجودي هنا، أخذ الطبيب منديلا مبللا ووضعه على جبيني وبدأ يراقبني من بعيد، أردت أن أنهض من فراشي وأتجول في الغرفة قليلا، لكن الطبيب منعني من ذلك وقال:

ـــلا تحاول ذلك مرة ثانية، فأنت في حالة سيئة، عليك أن ترتاح ريثما تعود صحتك كما كانت عليه.

نظرت من حولي باستغراب، رأيت إبرا ومحقنات بلاستيكية وبعض الأدوية العلاجية.

سألته:

ـــ أين والدتي.. ؟

ـــ-اطمئن، إنها بخير، لقد أتوا بك إلى هنا بعد أن فقدت وعيك تدريجيا، وعندما تتعافى ستعود إليهم سالما بإذن الله.

أذعنت لأمر الطبيب على مضض، استلقيت على السرير وبدأت الأفكار تتقلب في رأسي، تذكرت كيف أني كنت أتناول العشاء مع خالي، وكيف أن أنفي نزف، كانت الأفكار تتخبط بي من كل جانب، أحسست بأني مكبل بأسلاك حديدية لا أقوى على الحركة.

في ذلك الوقت بالذات، ظهرت أمامي يازينب، تذكرت ملامحك وصورتك أمامي، خشيت أن تقلقي علي، أردت أن أتصل بك، لكن الهاتف لم يكن بحوزتي، طلبت من الطبيب أن يخبرني عن مكانه فأبى علي ذلك وقال بصوت متهكم:

ـــيمنع عليك استعمال الهاتف وأنت في هذه الحالة، انتظر إلى حين مجيء والديك وبعدها تصرف كما يحلو لك.

-كم مضى علي وأنا هنا.. ؟

ــ-لقد أتوا بك ليلا مع الحادية عشرة، وهاهو الصباح قد حل.

ــ-لقد نمت كل هذا الوقت ولم أصح، يا إلهي، لماذا أصاب بالإغماء،

سألت الطبيب:

ــ متى سيأتون إلى هنا.. ؟

ــلم يتبق على وصولهم سوى نصف ساعة، فأرجوك انتظرهم ولا تقم من فراشك إلا بعد طلب الإذن.

ــحسنا سيدي.

انتظرت نصف ساعة، لكنهم لم يأتوا بعد، شعرت بالملل وقتئذ، وبعد مضي خمس دقائق على الوقت المحدد، سمعت طرقات على الغرفة، كان من الواضح أنها طرقات أمي، فأنا أعرف حركاتها وسكونها ورائحتها.

دخلت أمي ومعها خالي يطمئنون علي، ودموع غزار تهطل من عينيها وهي تمسح بيديها الحنونتين على وجهي، قبلتني في عيني واتجهت نحو الطبيب بعينيها المذعورتين تسأله عن حالي، لكن الطبيب امتنع وقال بصوت هادئ:

ــعلى انفراد لو سمحت سيدتي.

أذعنت أمي لطلبه وخرجت مع خالي إلى غرفة مجاورة. سمعت أمي تصرخ بأعلى صوتها وخالي يهدئ من روعها.

مرت عشر دقائق وإذ بأمي تدخل وتمسح الدموع من عينيها، جاءت صوب رأسي تقبله وتعانقني بشدة، قلت لها:

ــ-مابك يا أمي، هل قال الطبيب شيئا عني، أخبريني كيف هي حالتي، لماذا أنت صامت يا خالي تحدث ما الأمر.

ــ لقد شخص الطبيب حالتك، وقال أنه لا يمكنك مغادرة المشفى في غضون أسبوع كامل، فحالتك سيئة وهم يبحثون عن دواء لها.

ــ وماهي حالتي سيد مالك.. ؟

ــ-إنها سرية ولا يجب إخبارك بها، فقط أنت تابع ما يوصيك به الطبيب ولا تقلق.

ــأستحلفك بالله أن تقول، ثم إنه قدر الله، إن كان مقدرا لي شيء فسيحدث.

نظر إلى أمي وعلامات الفزع تظهر على قسمات وجهه وأومأ برأسه

إيجابا أن تتحدث، حولت بصري إلى أمي وهي تعدل من جلستها أمامي

قالت بعد برهة قصيرة:

ــ   أرجوك حسام، لا تنفعل أمام ما سأقوله الآن، وكن على ثقة أن تقدير الله هو المكتوب.

-ــأعرف هذا جيدا، هيا أخبريني.

ــلقد قال الطبيب أن حالتك سيئة وأن هناك شيئا في رأسك ينخر في دماغك، وأن هذا سبب ما يقع لك دائما، وقد أعطانا اسمه.

-قولي ما اسمه، لاتقلقيني كثيرا.

ــ-إنه سرطان الدماغ .

كان داخلي يئن من هول ما سمعت، ما كنت أعلم أن شيئا سيمنعني منك يا زينب، ظننت أنني سأجتمع بك، لكني ما ظننت أن هذا المرض سيحول بيننا، قاطعتني أمي بعدما كنت شارد الذهن.

__ما الذي أصابك يا حسام.. ؟

__لا شيء يا أمي، أنا حزين فقط، وحزني هذا لا يساوي شيئا أمام قدر الله، أخبريني ماذا قال ثانية.. ؟

-لقد قال بأن نسبة نجاتك منه هو خمسون بالمائة، وأنهم سيبدلون قصارى جهدهم من أجل أن تشفى منه نهائيا.

كانت تتحدث والدموع في محجريها، أردت أن أخفف عنها بشيء فقلت:

-أنت تعرفين أن ابنك قوي، وسينجو من هذا بإذن الله، لذلك لا تحزني أبدا، فأنا سأتبع تعليمات الطبيب ولن أغفل عن شيء أبدا.

__أرجو ذلك يا بني.

-أخبريني أين يمكنني أن أجد هاتفي.

بحثت في حقيبتها وأخرجته منها، مدته لي وقالت آخر كلماتها لي، "كن بخير يا حسام".

كانت تلك آخر كلمات أمي عندما انصرفت هي وخالي وأغلقوا الباب من ورائهم، انتظرت بشغف خروج الطبيب كي أستخدم الهاتف على راحتي، وفور خروجه فتحت قفل الهاتف فوجدت رسالة منك على الساعة الحادية ليلا.

__كيف حالك عزيزي، لا بد وأنك مستلق في فراشك كعادتك"

ــلم تكذبي يا زينب، أنا الآن مستلق على فراش الموت، ولا أدري أسأعيش كي نتزوج ونرى أطفالنا، أم أن الموت سيحول بين ذلك، أكتب إليك الآن وأنا ألفظ آخر كلماتي فوق هذا السرير، لا أدري أأفزعك بحالي فأتصل بك، أم أنتظر ما سيكتبه الله لي، لكنني لا أريد من قلبك أن ينكسر، أشعر الآن أن روحي تصارع كي تبقى على قيد الحياة، أشعر أنها تجاهد من أجل روحك، لكنها تهزم بسرعة، من قال أن حسام ذاك الفتى الطموح سيهزمه مرض كهذا ويتركه طريح الفراش، أظن أنني سألقى حتفي الليلة، وأنني لن أرى وجهك بعد الآن.

لن أستمتع مرة أخرى بالنظر إلى تلك العينين الجوهريتين، لن أستمتع بالنظر إلى خصلات شعرك الذهبية، وأظن أنني لن أشتم رائحة روحك بعد اليوم، أيمكنك أن تسامحيني يازينب، لربما حاولت أن أفهم معنى الحب من صديقي، ففهمته من عمي أكثر، سامحيني إن جعلت روحك تتعذب يوما ما، أو قد أكون أرهقتك بهذا الحب البائس،ولأنني أحبك، سأترك العنان لدموعي وأترك الروح لمولاها.

تذكرت حديث جبريل عليه السلام، حين جاء إلى نبينا الكريم وقال له:

"يامحمد، عش ما شئت فإنك ميت، واحبب من شئت فإنك مفارقه"، كان لابد لنا من أن نفارق بعضنا البعض، لكن الموت أهون علي من أن تعيشي الحياة القاسية بعد رحيلي.

كانت دقات قلبي تختلف في انتظامها، تارة ينبض وتارة يقف، وكأن قطار الحياة سيتوقف هنا وينطلق قطار الموت معلنا عن رحيل عبد فقير، كنت أحس في لحظاتي الأخيرة بالضعف، وبانكسار أمام ربي.

أرفع يدي للسماء كي يقبض روحي بهناء. كانت إحدى الممرضات تذرع الغرفة جيئة وذهابا، كان لابد أن أصلي ركعتين لله، أكفر بهما عن ما سبق، وأنا أعلم أن هذا صعب، لكنني أتقرب بهما إلى ربي، عساه يرحمني.

طلبت من الممرضة أن تمد لي سجادة كي أصلي ، مدتها إلى بابتسامة فشكرتها على ذلك، تقدمت نحو رب العالمين الذي يجيب المضطر إذا دعاه، طلبته أن يفرح قلبك وأن يشفيني من هذا المرض، طلبت منه أن يجعل حياتك سعيدة إذا أنا مت أو بقيت على قيد الحياة، طلبت منه أن يجمعنا معا، فإن لم يكن اللقاء في الدنيا، فاللقاء عنده أعظم وأجل.

انتهيت من صلاتي وجلست على السرير أكابد ألمي ومشقة مرضي،كان لابد أن أرحل هذا اليوم، فالألم يزداد شيئا فشيئا، وأنا لا أقوى على مجاهدته، لربما كان مقدرا لي أن أخط آخر كلماتي لك عبر هذ الكتاب، وأن أبحر أنا داخل عالم الأموات. ....*انتهى* .